الزمن الأخير

رواية

مصطفى ، نوال .
الزمن الأخير : رواية / نوال مصطفى . ـ ط1. ـ القاهرة :
الدار المصرية اللبنانية ، 2010.
224 ص ؛ 21 سم
تدمك : 3 ـ 598 ـ 427 ـ 977 ـ 978
1 ـ القصص العربية.
أ ـ العنوان . 813
رقم الإيداع : 7322 / 2010

©

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة .
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + ـ ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : ربيع ثاني 1431هـ ـ أبريل 2010م
الطبعة الثانية : شعبان 1431هـ ـ يوليو 2010م

الزمن الأخير

رواية

نوال مصطفى

الدار المصرية اللبنانية

إهداء

إلى السيدة العظيمة

التي ألهمتني فكرة هذه الرواية

إلى أمـي

نـوال

شـهـد

هل تُصاب الذاكرة بعوامل التعرية، وتتآكل كما تتآكل قمم الصخور والجبال؟ هل تُصاب بالارتباك أحيانًا فتقلب حياة إنسان رأسًا على عقب؟

هل يمكن أن يسقط ملف كامل يحمل حياة إنسان بكل تفاصيلها من "الهارد ديسك" الإلهي، الذي خلقه الله لنا كأعظم معجزة تستعصي على إدراك البشر؟

غاصت "شهد" في هذه الدوامـة من التساؤلات في لحظة شرود احتلتها ، بينما كانت تجلس على أرضية غرفة المكتب، تحيطها عشرات الألبومات وصناديق الأوراق الصغيرة، التي تحتفظ بها في خزانتها الخاصة.

ربما لأنها تملك الإجابة عن تلك التساؤلات، وجدت نفسها – دون تعمُّد – مدفوعةً إلى تلك اللحظة الخاصة جدًّا، فالخوف ينهش أعماقها من أن يأتي اليوم الذي تعيش فيه ما عاشته أمها، وتفقد كل رصيدها من الذكريات، وأن تمسح آفة النسيان صفحات مليئة بالأحداث والشخصيات.. بالأحلام والآمال.. بالفرح والدموع.

لقد رأت "شهد" هذا كله يحدث أمام عينيها، وعاشته قريبةً من أمها بأقصى درجات الألم، كانت أمها سيدةً قويةً، أشبه بأسطورةٍ إنسانية، لعبت طوال حياتها لُعبة "الرست" مع القدر.. لُعبة القوة.. من يهزم من؟

كان إصرارها على تحدي مفاجآت القدر ومناوراته تفوق الخيال، وكانت "شهد" ترى أمها- عندما كانت طفلةً صغيرةً - امرأةً مسيطرةً، لها هيبة.. كانت تخشاها وتحرص على التزام الهدوء والطاعة تجنبًا لغضبها وعقابها.

وكبرت "شهد" وبدأ اشتباكها الحقيقي مع الحياة، وكلما تقدم بها العمر وأتعبتها تجارب الحياة، اكتشفت أبعادًا أخرى في شخصية تلك الأم القوية.. صاحبة الشخصية المهيبة والكاريزما المسيطرة.

أدركت "شهد" مع الأيام سر هذه السيدة، واكتشفت أن هذا الدرع الواقي المغلَّف بالقوة، وأحيانًا بالقسوة يخفي وراءه شلالًا من الحنان والخوف والحرص، فقد كانت هذه السيدة الشجاعة دائمًا مسئولة، هكذا دفع بها القدر إلى هذا الموقع وذلك الدور.. المسئولية الأولى عن أيتام خلفتهم زيجتان حفلت بهما حياتها.. الزيجة الأولى لم تدم أكثر من ثلاث سنوات، وأثمرت ثلاثة أيتام وأرملة شابة في عنفوان الجمال، أما الزيجة الثانية فقد استمرت أكثر من عشرين عامًا، وأنتجت خمس يتيمات.. كانت "شهد" أصغرهن.

الدرع الواقي كان خط الدفاع الذي ترتديه الأم القوية، التي كان عليها أن تقهر ضعفها حتى تحتوي أولادها الثمانية تحت جناحيها.. في حضنها وتحت ظلها، فقد كانت تخشى مفاجآت أخرى من اللاعب الأكبر، وكانت في أعماقها تشعر بمسئولية مبالغ فيها تجاه كل ابنٍ أو ابنة من أبنائها، كالقطة تمامًا التي لا تغفل لها عين خوفًا من اقتراب يد المجهول من أية قطيطة صغيرة من أولادها.

وكانت "شهد" تكشف أبعاد تلك الشخصية الفريدة كلما مضى بها الزمن، ووعت وجربت.. تدرك وقتذاك أشياءً لم تكن تفهمها ، وهي طفلة تنظر بدهشة وخوف إلى هذه الأم القوية.

مع الزمن وعمق التجارب نفهم أكثر، لذا ذاب جدار الدرع الواقي ليصبح شفافًا مع الأيام، ويظهر ما وراءه.

تجلَّت صورة الأم في نظرها شامخة عظيمة، امتلأ قلبها بالحب والإعجاب الممزوج بالانبهار بتفاصيل قصة حياتها، وظلت البصمات العميقة التي تركتها على حياة أولادها، رغم قسوة الظروف التي عاشتها، ومعاندة القدر مصدرًا للتأمل عند "شهد".

هل ابتعدنا كثيرًا عن نقطة البداية؟ تلك التي حدثتكم فيها عن خوف "شهد" الرهيب من النسيان الذي يمحو حياةً كاملةً وذكريات نادرةً.. سوف أعود حالًا إلى الحكاية.. حكاية "شهد" التي عاشت أيامًا مريرةً خلال سنوات ثلاث، كانت الدموع تملأ قلبها حزنًا على تلك الأم الشجاعة.. المرأة الاستثنائية التي وقعت في سجن النسيان.

كانت تجلس معها ساعات تحاول أن تداعب ذاكرتها دون جدوى، وكانت ترى في عينيها الكثير من الكلام المعتقل والذكريات السجينة.

يا الله، أمي.. أرجوك تكلَّمي .. " قولي.. انفعلي.. انفجري.. لا تقفي مثل المسمار" لا تنظري إليَّ هكذا بعينين عاجزتين متوسلتين.. لا تمزقيني من الألم.

هل مسح عقلك كل ما كتب داخله من أحداث؟ هل أخطأت يد القدر، وضغطت على المفتاح الخطأ في الـ"كيبورد"، وداس إصبعه على مفتاح "delete" لإلغاء حياة كاملة؟

هل كان هذا هو السبب في اندفاع "شهد" بكل كيانها نحو تلك الخزانة العجيبة؟ وهل هذا هو ما سوف يدفعها إلى محاولة تسجيل كل ما يرد إلى ذاكرتها من أحداث وذكريات وشخصيات؟ هل احتلتها – في تلك اللحظة – هواجس مخيفة من أن تمتد اليد اللعينة نفسها، وتعبث بما اختزنته طوال حياتها؟ هل خافت أن تمارس تلك اليد هوايتها المفضلة، في مسح وإلغاء حياة إنسان تستحق أن تُروى، وأن تُحفظ في كتاب الكون؟.. ربما..

أحـــمد

جلس "أحمد" جوار النافذة في ذلك الصباح كعادته كل يوم، يشرب قهوته السادة، ويطلق العنان لأفكاره لتنطلق في أي اتجاه، وتغوص في أي موضوع.

كانت حالة "شهد" في الفترة الأخيرة تؤرِّقه وتشغل جزءًا من تفكيره، وكثيرًا ما سأل نفسه: "هل كنت مخطئًا عندما شجعتها على قرار الاستقالة؟"، ثم يعود ليخفف عن نفسه الذنب، ويقول: "كانوا سيستغنون عنها على أية حال، فلماذا تتلذذ بجلد الذات؟".

رن جرس التليفون ليقطع حواره الداخلي.. كانت "إنجي" على الخط.. انتشى وتبدلت ملامحه فتفتحت مثل وردة تتعطش لرذاذ الماء.

- صباح الخير يا دكتور "أحمد".

- صباح الخير يا "إنجي".. خير.. إيه اللي مصحيكي بدري كده؟

بتردد ونبرة صوت تحمل الغواية:

- أصل فيه حاجات عايزة أكلمك فيها، بخصوص محاضرة امبـارح يا دوك.

بسعادة ممزوجة بالدهشة والتساؤل:

- إيه.. مفهمتيش المحاضرة يا "إنجي"، ولا أنا اللي معرفتش أشرح؟

بتلعثم ونبرة تفيض أنوثةً ووهًا:

- لا يا دوك.. ده أنت أعظم دكتور في الدنيا.. بس أنا اللي محتاجة أتكلم معاك شوية.. بصراحة كده المفروض يخلوا محاضرة الاقتصاد وإدارة الأعمال يومية.. مش مرتين في الأسبوع بس.

يضحك "أحمد" بسعادة، وقد امتلأ بالزهو بعدما داعبت "إنجي" غروره وأرضته، فها هي ابنة العشرين تهفو إلى لقائه، وتتحرق رغبة في أن تقيم معه علاقة خاصة، رغم أنه أكمل عامه الخمسين، وبدأ نصف القرن الثاني من عمره، لكنه لا يزال يحمل داخله الشوق نفسه، والرغبة نفسها للانخراط في علاقة حب متأججة تنعش حياته، وتشعل في نفسه اختلاجة النشوة والإثارة التي يدمنها.

لم تكن تلك الرغبات جديدة، أو ناتجة عن "أزمة منتصف العمر" التي غالبًا ما تصيب الرجال والنساء أيضًا في مثل هذه المرحلة من العمر، فـ"أحمد" يؤمن، منذ تزوَّج "شهد" قبل خمسة وعشرين عامًا، أن العلاقات العاطفية - خصوصًا تلك التي تتطور إلى علاقة كاملة - تفيد الزواج وتقوِّيه وتضمن استمراره، لذلك فقد شهد ربع القرن الذي أمضاه مع زوجته "شهد" خيانات متكررة، ومتقنة الصنع.

خانها مع صديقة مقربة كانت تعتبرها "الأنتيم"، وكانت هذه الصديقة تعاني أزمة عاطفية بعدما هجرها صديقها.. وخانها كذلك مع زميلة له إنجليزية الجنسية، جاءت لتحاضر كأستاذة زائرة في جامعة القاهرة، وخانها أيضًا مع أرملة شابة كانت جارة أمه بالسيدة زينب.. لكنه في كل علاقة كاملة

من تلك العلاقات، كان يستخدم ذكاءه إلى أبعد حد، ويتقن خياناته إلى الدرجة التي لا تتسرب من خلالها ذرة شك إلى زوجته "شهد".

ولم تكن هذه هي الخيانات الوحيدة في حياة الدكتور "أحمد"، فقد وقعت الكثير من طالباته في حبه.. كان بطلعته الآسرة والشعيرات الرمادية الخفيفة التي تتخلل شعره الأسود الناعم، والعينين النافذتين بعمق إلى الآخرين، يتمتع بكاريزما خاصة وجاذبية شديدة، خصوصًا عند الفتيات الصغيرات من طالباته.

لكنه كان أذكى من أن يتورط مع فتاة من المراهقات، فيقع في مشكلات هو في غنى عنها.. كان يحرص على المسافة المناسبة التي لا يسمح لإحداهن بتجاوزها، ويكتفي بأن يحصل على جرعات مكثفة من الثقة بالنفس والإحساس بالذات، دون أن يدخل علاقة حقيقية تفتح عليه نار جهنم.

عاد الدكتور "أحمد" يرتشف فنجان قهوته بعدما أنهى المكالمة مع "إنجي".. أخرج "بلوك نوت" صغيرًا يكتب فيه عادةً خطة اليوم وما يجب إنجازه، سواءً في الجامعة أو في مكتبه الخاص أو مواعيد الأصدقاء، وغيرها من المواعيد السرية.

كذلك أخرج أجندته الخاصة من حقيبته الجلدية الفاخرة، التي يحتفظ داخلها بأوراق العمل.. فتحها وتوقف عند تاريخ اليوم: 10 من أكتوبر 2007، وقرأ على هذه الصفحة: (وصول "طارق" من لندن الثالثة مساءً.. عشاء بالمنزل على شرفه).. كيف نسى أن يخبر "شهد" بموعد وصول "طارق" وتلك الدعوة؟

هنا أصبح لا مفر من إيقاظها حتى تستعد لدعوة العشاء.. ورغم أنه كان يتجنب إيقاظها في الصباح قبل خروجه في الفترة الأخيرة، حتى يحمي نفسه من مشاعر الكآبة والإحباط التي تتسلل إليه من عينيها المستسلمتين، فإنه لم يجد بُدًّا من إيقاظها في ذلك الصباح.

اقترب من غرفة نومهما.. فتح الباب بهدوء.. جلس بجوارها على السرير، وأضاء الأباجورة المجاورة لها فانكشف وجهها، لتظهر علامات الإجهاد على ملامحها.. لمس بكف يده وجهها المتعب في حنان، وجالت عيناه متأملة الخطوط الرفيعة التي بدأت ترتسم على وجهها.. الشعيرات البيضاء التي تظهر من جذور الشعر، معلنةً عن دخول المرأة الجميلة أعتاب مرحلة جديدة من العمر.

فتحت " شهد " عينيها لتجد "أحمد" يجلس جوارها، سألته بقلق:

- فيه إيه يا "أحمد"؟

طمأنها بهدوء:

- مفيش حاجة يا حبيبتي.. آسف أزعجتك لكن مضطر.. "طارق" جاي النهارده من لندن، وأنا عزمته على العشاء عندنا.. ده طبعا بعد إذنك.

تمطعت "شهد" في سريرها، وهي تحاول أن تستفيق لتستوعب كلام "أحمد"، ثم قالت:

- النهارده؟

- لو فيها تعب ممكن أعزمه برَّه.

فكرت "شهد" للحظات، ثم قالت:

- لأ.. أوكي يا "أحمد".. أنا هاقوم دلوقتي وأحضر كل حاجة، حتيجوا الساعة كام؟

- الساعة سبعة.

- أوكي.. حتلاقي كل شيء تمام.. هي "ليلى" حتيجي معاه؟

- لا.. "طارق" جاي المرة دي لوحده من غير مراته ولا بنته.. يظهر عنده مشكلة كبيرة، علشان كده طلب إننا نقعد فِي البيت عشان نكون على راحتنا.

- أهلًا وسهلًا بيه.

- محتاجة حاجة أجيبها معايا؟

- هات النبيذ الأحمر.. انت عارف إن "طارق" بيحبه.

- أوكي يا حبيبتي.. إلى اللقاء.

طـــارق

تأخرت طائرة "طارق" ساعة .. كان "أحمد" في انتظاره، استقبله بحرارة واصطحبه إلى حيث تقف السيارة بموقف المطار.

كانت ومضات الحزن تطل من عيني "طارق" رغم الابتسامة الظاهرية، بدا مرهـقًا قليلًا .. لكنه في الوقت نفسه كان متشوقًا للجلوس مع "أحمد" و"شهد"، وإلى ذلك الحديث الحميم الذي يكون فيه على طبيعته دون تكلف أو تحفظ.

فـ"أحمد" هو الصديق الأقرب لـ"طارق"، تربطهما صداقة ممتدة منذ كانا طالبين بمدرسة السيدة زينب الثانوية، واستمرت تلك الصداقة رغم تفرُّق الطرق، فقد التحق "أحمد" بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية، بينما اختار "طارق" كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية.

خرجت "شهد" من غرفتها إلى الـ "ليفنج روم" مشرقةً، تبدو فِي كامل رونقهـا، ترتدي البنطلون الجـينز الأزرق الفـاتح الأقـرب إلى السـماوي، والبلوزة البيضاء القطنية الفضفاضة، المطعمة بشغل يدوي دقيق ومنمنم، ويتدلى من تحت الخصـر حـزام جلدي بني يـزيد من تحـديد معالم الجـسد الممشوق لامرأة أنيقة وفاتنة.

رحبت "شهد" بحماس ودفء بـ"طارق"، وكانت قد أمضت اليوم كله في الإشراف على التنظيف والترتيب مع "نادية" الشغالة، وأعدت بنفسها طبق "البيكاتا بالشامبنيون" الذي يحبه "طارق"، كما رتبت المائدة بأسلوب سيدة مثقفة متذوقة للفن والجمال.. الشمعدان.. الزهور الجميلة.. تنسيق الأطباق والأكواب بطريقة لافتة.

أمضى الأصدقاء الثلاثة ساعة أو أكثر في الحديث عن لندن وأخبارها ومصر وحكاياتها، بينما يتشاركون كؤوس النبيذ الأحمر والمزات ، التي أعدتها "شهد" بأناقة تفوح منها رائحة الأنثى ولمساتها.

نهضت من مقعدها فجأة، وقالت:

- أفتكر بقى لازم ناكل.. عشر دقائق وحتكون السفرة جاهزة.

دخلت "شهد" المطبخ، وتركت "أحمد" الذي سأل "طارق":

- إيه أخبار جيسيكا؟

لفَّت سحابة الحزن وجه "طارق"، وتبدلت ملامحه.. وقال:

- الأمور من سيئ إلى أسوأ.

- ليه يا "طارق".. هي مش كانت خفِّت؟

- والله يا "أحمد" أنا دخلتها أكبر مصحة علاج إدمان في لندن.. وكانت فعلًا خفَّت، وبدأت تهتم بي وبـ" ليلى " زي زمان. وفجأة من شهرين تقريبًا رجعت تاني للشرب بطريقة هستيرية.

شرد "أحمد" متأملًا ملامح صديقه الناطقة بالحزن والألم، ثم قال:

- و"ليلى" عاملة إيه في الظروف دي؟

- "ليلى" مسكينة.. قلبها موجوع على أمها، لكن أنا بحاول أحتويها، وأقرَّب منها علشان متضعش مني هي كمان.. انت عارف يا "أحمد" إن "ليلى" هي حياتي كلها دلوقت.

ويفاجئه "أحمد" مداعبًا في محاولة لتغيير الموضوع:

- وإيه أخبار النسوان؟

يبتسم "طارق" مداريًا أحزانه:

- والله يا "أحمد" الواحد ما بقى له نفس لأي حاجة.

تدخل "شهد" مبتهجةً منتشيةً، تدعوهما إلى مائدة العشاء التي أصبحت الآن جاهزة تمامًا.. يلتف الأصدقاء الثلاثة حول المائدة المثيرة للشهية والخيال.

ينبهر "طارق" بطريقة إعداد المائدة، واللمسات الفنية الأنثوية الرائعة ، التي ينطق بها كل سنتيمتر من المساحة المعروضة.. أشكال الأطباق وأدوات المائدة والشموع والورد.

ينظر "طارق" إلى "شهد" نظرة مليئة بالامتنان والشكر، فقد جاء محملًا بأحزان تفوق الوصف وشجنًا عميقًا، وإذا بـ"شهد" تبدِّل الأشياء وتمنح الحياة بهجتها الأولى.. هكذا كانت "حواء" منذ بدء الكون مصدر الحياة على الأرض.

شكرها بمشاعر نابضة، والتهم الأطباق اللذيذة التي أعدتها مع النبيذ الأحمر.. أحسَّ بنشوةٍ لم يحسها منذ زمن، ونسي للحظاتٍ همومه وأحزانه.. غاص تمامًا في تلك النشوة الآسرة وتمنَّى أن يتوقف عندها الزمن، فها هو يستدعي أبيات قصيدته الأثيرة لمحمود درويش " على هذه الأرض ما يستحقُّ الحياة"، وها هو يترك نفسه للطشات النبيذ، وتأثير الموسيقى الخافتة التي أدارتها "شهد" كخلفيةٍ بديعةٍ لتلك الجلسة الحميمة، التي ازدانت بألوان الزهور وتناسقها وتراقص ضوء الشموع.

ها هو يعود "طارق" الذي كان قبل عشرين سنة.. "طارق" المنطلق بخياله إلى أبعد حد.. المحب للحياة والتجارب والبشر.. المليء بالحماس للمستقبل.. ها هو يستدعي أمسيات قضاها في مصر قبل هجرته إلى لندن، ويقبض على ذلك الدفء المفتقد في حياته هناك.

في طريقه إلى بيته بالدقي ، وبينما تخترق السيارة الشوارع، وتتلألأ أنوار المصابيح على صفحة النيل، كانت مشاهد من حياته تقفز من عمق الأعماق، وتتجلَّى أمامه صوتًا وصورةً.. أيام الجامعة وحبه الأول لزينب زميلته في قسم التاريخ.. مظاهرات الطلبة احتجاجًا على اعتقال زملاء لهم.. دعوات أمه الدافئة له كل صباح بالنجاح والفلاح والسعادة.

وكأن تلك السهرة الفريدة قد أضاءت حجرات ، كان يظنُّ أنها أظلمت تمامًا في ذاكرته، وأن الزمن قد طواها.

وكأنَّ هذا الجو الأثير قد أعاده إلى نفسه أو أعاد نفسه إليه..

جيسيكا

لم تنم جيسيكا لحظة واحدة في هذه الليلة.. كان شبح حرمانها من "ليلى" يسرق النوم من عينيها.. شربت كثيرًا، ربما أكثر من معدلها اليومي بمقدار الضعف.. إنها وحيدة الآن، وهذه هي الحالة التي تجعلها تفتح أوراق حياتها دفعة واحدة، وتتنقل بينها بخوف وجزع.

سافرت "ليلى" مع الكلية في رحلة لعدة أيام، بينما سافر "طارق" إلى مصر في إجازة قد تطول.. واختلت جيسيكا بنفسها وأحزانها الكبيرة، وسط طوفان من الذكريات.

يمر شريط حياتها أمام عينيها كأنه فيلم سينمائي .. تقف طالبة قسم التاريخ بجامعة أوكسفورد وسط زميلاتها وزملائها في كافيتريا الجامعة، يتناهى إلى سمعها صوت شاب يتكلم مع آخر باللغة العربية، تلتفت إليه بفضول، تقتنص نظرة، يحتلها الوجه بكل تفاصيله، تستجمع نفسها في محاولة لأن تبدو طبيعية، يبتسم من مكانه، فتتقدم بحماس لتحيته وتبادر بالحديث:

- أعتقد أنك زميل جديد في الكلية.. أليس كذلك؟

بترحيب وود يرد:

- نعم.. أنا هنا في بعثة دراسية من جامعة القاهرة لدراسة الأدب الإنجليزي.

- عظيم.. هذا يعني أنك مصري من بلد الفراعنة؟

يبتسم بخجل، ويقول:

- نعم الفراعنة كانوا أجدادنا.. لكن يبدو أن الأحفاد لم يحظوا بعبقرية الأجداد.

تبتسم "جيسيكا" بسعادة، وتقول:

- أنا طالبة دراسات عليا في أوكسفورد أيضًا.. لكنني أدرس التاريخ، وقد تخصصت في علم "المصريات" لأنني أعشق تاريخ مصر القديمة المليء بالسحر والغموض.

يندهش "طارق" للمصادفة الغريبة.. أن تنجذب "جيسيكا" للتبحر في تاريخ مصر القديمة، وأن يقرر دراسة الأدب الإنجليزي.. يا لها من مفارقة.

يا الله.. كم كنت جميلًا يا "طارق"، دخلت قلبي في ذلك اليوم، ولم تخرج منه أبدًا.. عشرون عامًا مضت كأنها عشرون لحظة، فالسعادة تلغي الزمن، وتجعلنا نسبح في فضاء سماوي رحب لا زمان له ولا مكان.. وهكذا كانت حياتي معك يا "طارق".

منذ تزوجنا وأنت تحتويني وتمنحني دفء الدنيا وحنانها.. كان حبك جنتي التي لم أكن أحلم يومًا أن أعيش وسط أشجارها الوارفة.. فإذا بك تحقق المعجزة، وتصنع لي واحة الحب.

هل يستطيع الإنسان أن يغيِّر قدره؟ سؤال طالما أرقني، لقد حلمت كثيرًا أن أقلِّب معك صفحة حياتي المظلمة قبلك.. حلمت أن أخرج من هذا النفق

الكئيب، الذي وعيت لأجد نفسي أختنق بين جدرانه، حلمت أن أتمرد على جيناتي اللعينة، التي أورثتني حب الخمر وإدمانه.

حاولت بصدق وأنت تعلم ذلك جيدًا، فبعد إشهار إسلامي في أزهركم الشريف، كنت أستدعي تعاليم الإسلام وأشحن نفسي بها، علَّني أهزم مرضي اللعين الذي أراه يزداد ويستفحل مع الأيام، كأنه سرطان يلتهم خلايا الإرادة ويسهل عليه بعد ذلك أن يتحكم في الإنسان بالريموت كنترول.

وأنت يا حبيبي وقفت جانبي بكل حب واحتواء، كنت طبيبي وحبيبي، تمنحني شجاعة المقاومة، وتستمر جرعتك معي لفترة، ثم يخبو مفعولها وينتصر مارد الإدمان الداخلي، ليلقي بي إلى طاولة الزجاجة والكؤوس.

ماتت أمي في مصحة لعلاج الإدمان من الكحول.. لم أخفِ عنك ذلك في بداية علاقتنا.. لم أشأ أن أبدأ حياتي معك بالزيف والخداع.. لكنك طمأنتني، وقلت يومها إن حياتنا معًا ستهزم أي عدو يتربص بنا، فالحب يصنع المعجزات.

وتبكي جيسيكا بينما تتتابع مشاهد حياتها أمام عينيها مستغرقة في حوارها الداخلي: لكني خذلتك يا "طارق".. الآن وصلت حياتنا إلى منعطفٍ خطيرٍ، سأدخل مصحة علاج الإدمان كما حدث لأمي من قبل.. وستتابع "ليلى" دراستها بكلية إدارة الأعمال بجامعة أوكسفورد تحت رعايتك، سامحني يا "طارق".. لقد ألقيت العبء عليك.. لم أرغب في ذلك.. كنت أتمنى أن أشاركك كل شيء، لكنني الآن أصبحت أمثِّل خطرًا على أقرب الناس إلى قلبي.. ابنتي "ليلى" وأصبح عليك يا حبيبي أن تحمل مسئولية

مزدوجة: عن زوجةٍ مريضةٍ مسلوبةِ الإرادة، وابنة شابة في مرحلة حسَّاسة ينبغي رعايتها وحمايتها من شرور الدنيا المحدقة بنا.. وربما كنت أنا أحد تلك الشرور.

الإجابة عن السؤال الذي يؤرقني وَصَلَتْ إليَّ عبر سلسلة من الأحداث مرت في حياتي.. لا.. لا يستطيع الإنسان تغيير قدره إلا في أضيق الحدود، والدليل قصتي الحزينة.. قصة الألم والأمل.. الاستسلام والمقاومة.. الهزيمة والانتصار.. معركة ممتدة مستمرة تدور داخل أعماقي، وها أنا أستعد لرفع الرايةُ البيضاء.

أحببت "طارق" وأحبني .. الآن يتحول حبه إلى نوع من الشفقة والعطف.. أحببت "مصر" بلد "طارق" و "ليلى" وبلد الفراعنة الذين طالما عشقتهم، وإذا بي لا أحتمل أن أبقى هناك أكثر من أسبوعين عندما سافرنا إلى مصر فِي إجازة، وكانت الخطة الموضوعة سلفًا أننا سنمضي شهرين هناك، لكن مرضي الثاني.. مرض الوطن أو "Home sickness" سيطر عليَّ، وجعلني أترك "طارق" و"ليلى" يكملان إجازتهما في مصر وحدهما، بينما سافرت وحدي إلى لندن لأجتر مشاعر الحزن والندم.

إلى أين يأخذني الطريق.. متى يتوقف نزيف الألم في حياتي؟ هل أنا أفقد "طارق" الآن؟ هل ناء بالحمل وتعب؟

هل يمكن أن أشفى من الإدمان وأعود "جيسيكا" حبيبته المليئة بالحب للحياة؟ هل يمكنني أن أعود مصدرًا للسعادة لـ"طارق" و"ليلى"؟ هل يمكنني أن أتشبث بالأمل؟

ليلـــى

سـافرت "ليلى" إلى إحـدى ضواحي لندن في رحـلة نظمتهـا الجامعـة.. لم تكن ترغب في السـفر، لكنَّ "طارق" أقنعها بضرورة الخروج من هذه الدائرة الخانقة التي تدور فيها بلا نهاية.. بلا جدوى.

فقـد عاشت طوال الشهـر الأخير مأساة أمها في نقطـة الذروة، بعـدما ضبطها أمن الجامعة تشرب في غرفة الأساتذة من زجاجة ويسكي صغيرة كانت تحتفظ بها في حقيبتها، فأبلغ عميد الكلية، وفي اليوم نفسه تم رفدها من الكلية.

كانت "جيسيكا" أستاذة لعلم المصريات بجامعة أوكسفورد، وكانت تجد نفسها في التدريس مع الطلبة والطالبات، وتجد في هذه المهنة إشباعًا حقيقيًّا ومتعة لا تضاهيها متعة أخرى، وكان يضاعف من إحساسها بالنشوة أن الحديث في محاضرتها يدور حول العالم الذي أَسَرَهَا واحتلها.. عالم المصريين القدماء.. في هذا الفضاء المثير كانت "جيسيكا" تجد نفسها كأنها كانت هناك منذ آلاف السنين.. تعيش كملكة متوجة من ملكات مصر.. حتشبسوت أو نفرتيتي مثلًا، وعندما صعدت روحها إلى السماء، عادت في جسد "جيسيكا" لتكمل هذه الحياة الأثيرة الساحرة.

لذلك كان العمل بالنسبة لـ"جيسيكا" نوعًا من العشق.. لم تعتبره يومًا التزامًا صارمًا أو ضغطًا من ضغوط الحياة، بل كانت تجد فيه حياتها وكيانها وهوايتها الوحيدة.

وعندما انفلت الزمام من يدها، وتهورت ودسَّت زجاجة الويسكي في حقيبتها ، ضاع كل شيء تحطَّمت صورتها أمام الطلبة والطالبات الذين يعتبرونها الأستاذة المثالية، والذين كثيرًا ما يدعونها بصفةٍ شخصيةٍ وديةٍ بعيدًا عن صفتها الرسمية لتشاركهم الاحتفال بأعياد ميلادهم ومناسبتهم الخاصة.

انسحبت من تحت قدميها الأرضية الصلبة التي كانت تقف عليها وتشعر أنها سندها المعنوي، ومصدر طاقتها ومبرر وجودها في الحياة، فأحست كأنها ريشة خفيفة تتلاعب بها الرياح.

كانت "ليلى" تبكي بجوار أمها المنهارة "جيسيكا"، ولا تعرف ماذا تقول؟ هل تواسيها؟ هل تخفف عنها المصيبة التي أصابتها؟ هل تلومها على فعلتها التي تسببت في ذلك؟ هل تؤنبها وتقيم لها محكمة قاسية، وتلقي في نهايتها حكم القضاة عليها بأنها مذنبة؟

في مثل هذه الحالات يقف المرء حائرًا.. أي الثياب يرتدي؟ هل يرتدي روب المحامي ويحلل ويفند الأسباب التي دفعت موكله إلى ارتكاب الجريمة، ويلتقط من سيرة حياته ما يدعم موقف المتهم أمام المحكمة؟ أم يلوذ بروب القاضي الحاكم الصارم الذي يطبق القانون.. قانون الحياة والعُرف والمنطق؟

لهذا صمتت "ليلى".. فهي في أعماقها تلوم أمها، وتتمنَّى أن تصرخ في وجهها: لماذا يا أمي؟ لماذا تشربين؟ لماذا تدمنين؟ لماذا أوصلتك لعنتك هذه

إلى الضياع الذي تعانينه الآن.. وأنا أقف مشلولةً.. عاجزةً عن أن أساعدك، وأنتِ الإنسانة التي منحتني من الحب والحنان ما يكفي مئات البنات مثلي.

أما "طارق" فلم يكن أفضل حـالًا من "ليلى"، بل ربما كان أسوأ حالًا منها.. إنه الآن يحمل في قلبه مأساة زوجته "جيسيكا"، وخوفه على ابنته "ليلى" في آن.

إنه يعيش أصعب منحنى في حياته، تتصارع داخله الحلول والأفكار.. ويتعارك القلب مع العقل.. المصلحة مع الواجب.. حبه لـ"جيسيكا" وتعاطفه معها مع حبه لـ"ليلى" وخوفه عليها.

هل يتخذ قرارًا عقلانيًّا بحتًا، ويُبعد "ليلى" عن أمها على الأقل في هذه الفترة الحرجة التي وصلت فيها مشكلة "جيسيكا" مع الإدمان، ثم الرفت من الجامعة إلى أقصاها؟ هل يرسلها إلى مصر لتكمل دراستها الجامعية هناك؟ هل يبقى معها.. أم مع جيسيكا التي قررت للمرة الأولى أن تدخل مصحة لعلاج الإدمان ، بعد أن رفضت هذه الفكرة أكثر من مرة.

ضغط "طارق" على "ليلى" لتسافر وتترك أمها بضعة أيام وحدها، وأكدت أمها أنها في حاجة إلى أن تختلي لفترة، لذلك طلبت أن يسافر "طارق" أيضًا إلى مصر لحضور مؤتمر الرواية الذي دعاه إليه المجلس الأعلى للثقافة لإلقاء بحث.

رجتهما "جيسيكا" أن يتابع كلٌّ منهما برنامجه المعد سلفًا، وألا يغيِّر أحدهما شيئًا بسببها، قالت إن إحساسها بأنها تسببت في إرباك حياتهما يزيد من حزنها واكتئابها، وإنها محتاجة إلى وقت تفكر فيه وحدها وترتِّب أوراقها، وإنه من الأفضل أن يسافرا في هذه الفترة حتى يمكنها لم أشتات نفسها.

اقتنع "طارق" بكلامها، وحاول إقناع "ليلى" به بصعوبة، لكنها في النهاية رضخت لرغبة والديها ونصيحتهما.. سافرت ليلى بعينين دامعتين منتفختين من فرط البكاء.. كان قلبها يفيض بالحزن على أمها.. وكانت تصلي وتقرأ القرآن كثيرًا من أجلها.. وتدعو لها بالهداية والشفاء من لعنتها الأبدية.

في الطريق الذي تحيط جانبيه الأشجار الكثيفة، جلست في مقعدها بجوار النافذة في الأتوبيس السياحى، ترتدي نظارة سوداء كبيرة تغطي آثار البكاء وتورم العينين.. وشردت مع المشهد الخلاب لتستدعي أحداثًا كثيرة، شهدتها أعوام عمرها العشرين.. أمها "جيسيكا" تأخذها إلى المدرسة بسيارتها الخاصة.. تعود بعد المدرسة لتجدها في انتظارها.. تضمها فتبثها دفء العالم كله.

وفي عيد ميلادها.. تبدأ التحضير له قبل الموعد بأسبوع.. تنتظر نومها في المساء لتبدأ في تجهيز المفاجآت.. لا تريد أن تعرف "ليلى" مفاجآت الحفل، فتبذل مجهودًا يفوق الخيال لإسعادها، وتتتابع مشاهد حياتها كثيرة لتخترق القلب الحزين.

تمتلئ عينا "ليلى" بالدموع.. تنساب رغمًا عنها من تحت النظارة الشمسية السوداء، فتمتد أصابعها في استسلام لتمسحها.

سـيف

يرتبط "سيف" بأمه "شهد" ارتباطًا عميقًا، ويندهش المقربون من العائلة لهذا الارتباط الذي يفوق ارتباط شقيقته "سارة" بأمها.. فمن المفترض أن تكون الابنة الأقرب إلى الأم، والابن هو الأقرب إلى الأب.. هذا هو الـ"ستريو تايب" أو الشكل التقليدي للعلاقات الاجتماعية كما يظن الكثيرون.. إلا أن "سيف" كسر القاعدة.

لذا فقد اهتم كثيرًا بهذا التغير الذي طرأ على حياة "شهد" وانشغل به، فهو يجيد قراءة أعماقها، ويرى ما تخفيه أو ما تحاول إخفاءه.. لفت نظره جلوسها ساعات على أرضية غرفة المكتب، وانهماكها في تقليب ألبومات الصور، وتفحص الأوراق الصغيرة المتروكة منذ سنوات في صناديق أو شكمجيات، وقراءة الـ"ستيكر" المثبت على جانب أشرطة الفيديو القديمة.. أعياد ميلاد أو أفراح أو أية مناسبة تم تسجيلها على شريط فيديو.

يسألها بحب واهتمام:

- ماذا تفعلين يا أمي الجميلة؟

فتجيبه دون أن تتوقف عن ملاحقة الأوراق والألبومات والشرائط، كأنها في مهمة عاجلة يجب أن تنجزها:

- أبدًا يا حبيبي.. أنا برتّب الدولاب ده.. فيه حاجات مهمة وحاجات مش مهمة.. حاجات من سنين لازم أرتبها.

وتضحك وتكمل كلامها:

- ما هي أمك بقت فاضية دلوقت.. لا شغلة ولا مشغلة.. على الأقل أعمل الحاجات اللي كان نفسي أعملها من زمان يا "سيف".

يجلس "سيف" أمامها على "الفوتوي" المواجه للمكتبة، ويداعبها بسؤال شقي:

- وإيه تاني كان نفسك تعمليه يا "شهد"؟ مش عايزة تتشاقي شوية؟ تيجي معايا النادي مثلًا وأقول لأصحابي إنك الـ"جيرل فريند" بتاعتي.. وبالمرة تتفرجي على الماتش النهائي اللي حلعبه يوم الخميس في بطولة الجمهورية للتنس؟

ترفع "شهد" رأسها إليه مبتسمة، وتقول:

- طبعًا يا حبيبي.. لازم أحضر ماتش النهائي.. وأشوف ابني حبيبي.. الـ"بوي فريند" بتاعي وهو بيفوز ببطولة الجمهورية.. وأمشي كده زي الطاووس فخورة بإني أم البطل.. الدكتور "سيف".

يستغل "سيف" هذه الحالة المزاجية العالية التي أحسَّها في نبرة صوت "شهد"، ويدعوها إلى أن تترك الأوراق والألبومات والشرائط، وتقوم لترتدي ملابسها وتصحبه إلى التدريب، لكنها تعتذر له بحنان كأنه رجاء أو توسل أن يتركها مع أشيائها ويذهب إلى تدريبه، فلديها الكثير لتنجزه.

يحاول مرةً ثانيةً أن ينتزعها من عالم الذكريات.. يعدها بأنه سوف يساعدها في أيام الجمع في ترتيب هذه الأشياء.. ترفض.. ثم تبرر سبب الرفض، فتشرح له تفاصيل المهمة الطويلة الشاقة التي بدأتها في الفترة الأخيرة.

إنها تضع كل شريط فيديو في جهاز التشغيل وتديره وتتفرج عليه كله.. وتكتب في كشكول كبير خصصته لهذه المهمة نوع المناسبة.. تاريخها.. وأسماء الأشخاص الموجودين على هـذا الشريط ونبذة صغيرة عن كل منهم، وهـل لا يزال حيًّا أم أنه رحل.. كذلك تفعل في ألبومات الصور التي تمتلئ بها المكتبة.

ذُهل "سيف" عندما فاجأته "شهد" بتفاصيل ما تفعل، وطوال الطريق من البيت إلى النادي ظل يفكر في هذه الحالة الغريبة التي انتابت أمه وازداد قلقه عليها.. هل أصيبت بحالة نفسية نتيجة لمرورها بظروف صعبة خلال مرض جدتي، ثم صدمة الاستقالة التي تزامنت مع محنة مرض أمها والعذاب الذي عانته في سنواتها الأخيرة؟ هل أصبح الخوف من الزمن هاجسًا مقيمًا في أعماقها؟ هل تخشى أمي الشيخوخة، وهي - بالفعل - على أعتابها الآن بعد أن أكملت الخمسين، رغم أن مظهرها لا يدل على سنها، فهي تبدو أصغر كثيرًا من سنها الحقيقية؟ هل صهرتها تجربة أمها مع النسيان والزهايمر، فجعلتها ترتعد خوفًا من أن يصيبها ما أصاب الأم، لذلك تسجِّل وتوثِّق كل لحظة مرت في حياتها؟

المهم الآن ألا أتركها وحيدة.. لا بد أن أنتزعها انتزاعًا من تلك الدوامة المخـيفة.. لا أسـتطيع أن أراهـا هكذا تغيب وتتوارى في سحب الماضي بينما لا تزال تعيش الحاضر، بل ويجب أن تعيش المستقبل، وتراني عندما أتخرج في

العام المقبل طبيبًا كما كانت تحلم دائمًا، وترى "سارة" أختي بعد عدة أعوام خريجة في كلية الألسن قسم اللغة الإنجليزية.

لا بد يا أمي أن تعودي للحاضر.. لقد كنت دائمًا شمس هذا البيت المشعة على الجميع دفئًا وحنانًا.. كنت مفجرة الحماس والأمل والطموح في حياتنا.. فكيف يخفت ضوءُكِ؟

سأكلم أبي و"سارة".. لا بد أن نحتويها أكثر في تلك الفترة.. فلنعطها وقتًا تشعر فيه بكيانها وأهميتها في حياتنا.. نحن مشغولون.. هذه حقيقة.. لكل منا حياته وبرنامجه ومشاغله، والنتيجة أنها أصبحت هكذا امرأة وحيدة تجتر الماضي وتعيش في ذكرياته الجميلة والأليمة، هذا بالطبع لو تمكن منها أكثر فسوف يسلمها إلى حالة من الجنون لا محالة.

لا يا أمي.. لن يحدث هذا، لا بد أن أتحرك بسرعة قبل أن يستفحل الأمر.. لن أتركك وحدك أبدًا يا أغلى الناس..

ســـــارة

تفيق "شهد" من غفوتها القصيرة على صوت "أحمد" محتدًّا.. منفعلًا.. تفرك عينيها لتستجمع الأحداث من حولها.. لقد غلبها النوم بعد صباح حافل بالعمل الجاد في مهمتها الجديدة التي أصبحت على رأس أولوياتها: تسجيل أحداث حياتها وتوثيقها.

بعد أن أعدت طعام الغداء وانتهت من واجباتها المنزلية، شعرت بهبوط وأحسَّت أن جسدها يكاد يتهاوى فوق قدميها.. اتجهت إلى غرفتها وألقت جسدها في إغفاءة لم تطل، كأنها إغماءة مفاجئة.

أقل من ساعة هي المدة التي نامتها "شهد" لتصحو على أصوات العراك.. تنهض من سريرها وتتجه إلى غرفة "سارة" مصدر هذا الضجيج، ترى "أحمد" يقف منفعلًا بينما تلمح آثار الدموع على وجه "سارة".

في قلقٍ قالت:

- إيه يا "أحمد" .. حصل إيه؟

يلتفت إليها عندما يلحظ وجودها.. يحس بالذنب لأنه أيقظها فهي قليلة النوم، مجهدة للغاية خلال الفترة الأخيرة.. ينظر إلى "سارة" بغيظ وغضب، كأنه يريد أن يشعرها أنها أيضًا شريكة في الذنب معه.

يقول "أحمد" بانفعال:

- أنا آسف يا "شهد" لإني صحيتك، لكن "سارة" بنتك السبب.. أنا تعبت معاها مناقشة وإقناع لكن مفيش فايدة.. يبدو إن كل حاجة في الدنيا دلوقت محتاجة قوة وحسم.

تستوضح الموضوع بينما تبدو على وجهها علامات الإجهاد واضحة ولافتة:

- إيه بس اللي حصل يا "أحمد".. بهدوء كده.. فهمني "سارة" عملت إيه؟

- "سارة" يا "شهد" بتقعد بالست ساعات على "النت".. "شات" و"فيس بوك" و"داونلود الأغاني" هو ده اللي بتعمله في حياتها.

تنظر "شهد" إلى ابنتها نظرةً نافذةً ناطقةً بما تريد أن تقوله.. تلتقي عيناهما في حوار صامت تتبادلان خلاله موقف كل منهما الرافض لما يحدث.

فأسلوب حياة "سارة" لا يعجب "شهد"، وكثيرًا ما دارت حوارات بينهما تبدأ بالنصيحة والصوت الهادئ، وتنتهي بالغضب والصراخ.

"سارة" نموذج لفتيات هذا العصر.. عصر التغريب والعولمة.. الإنترنت والشات والآي بود.. وشهد ليس لديها اعتراض على الحداثة والتكنولوجيا، بل على العكس ترى أنها نقلة ثقافية وإنسانية ، قبل أن تكون تكنولوجية وعلمية.

اعتراض "شهد" وكذلك "أحمد" على أسلوب "سارة" في استخدام تلك الأدوات التكنولوجية العصرية، فهي تستغل الإنترنت مثلًا في الترفيه واللهو

والثرثرة مع زملائها وصديقاتها، ونادرًا ما يريانها تغوص في بحثٍ طويلٍ عن موضوعٍ علميٍّ أو أدبيٍّ أو ثقافيٍّ أو في أي مجال.

المرات القليلة التي تفعل فيها ذلك تكون مضطرةً لأن تلك الأبحاث مطلوبة منها في الكلية، أما فضولها الشخصي وحبها للبحث والمعرفة فلا يظهر أبدًا.

تعترض "سارة" على رأي أبويها، وتجد فيه الكثير من التجني والتحامل، وتفنِّد أسباب دفاعها فتقول:

- أنتم جيل ونحن جيل.. أنتم نشأتم على القراءة والثقافة والكلام الكبير، أما نحن فنشأنا لنجد إبداعات تلك التكنولوجيا المبهرة، والمزيد من وسائل الاتصال الحديثة التي جعلت العالم قرية صغيرة.. فكيف تريدون من الجيل الحالي أن يعيش كما عشتم أنتم قبل تلك الاختراعات التي قلبت وجه الحياة؟

كثيرًا ما استمعت "شهد" إلى كلام "سارة" وأبدت تفهمًا كاملًا له.. وكثيرًا ما حاولت أن تكسر الحاجز الذي تراه "سارة" منيعًا بينهما من منطلق نظريتها السابقة، لكن الأم المجربة التي تحمل خبرة الحياة وحكمتها، كانت تحاول أن تقنع الشابة المتمردة بأن هذا الأسلوب العصري جدًّا الذي تؤمن به وتنتهجه لا يبني الإنسان من الداخل، ولا يعمِّق نظرته إلى الحياة.. إنه - حسب رأيها- أسلوب يتعامل مع كل شيء بسرعة وسطحية شديدة، ويلهث وراء المتعة السريعة التي لا تترك شيئًا يبقى في أعماق الإنسان.

الأكل سريع.. الحب سريع.. الاستمتاع بالفن.. سينما أو موسيقى أو فن تشكيلي.. أين كل هذا في حياتها.. أين الكتاب.. القراءة خارج مناهج الكلية والتزاماتها؟ لا يوجد.

لهذا كله كانت علاقة "سارة" بـ"شهد" علاقة غريبة، يطفو على سطحها التمرد والرفض وتفوح بالاختلاف، لكنها وعلى مستوى أكثر عمقًا كانت علاقة حب ودفء.. احتواء وتعلُّق.

كانت "سارة" تحب أمها وتركض إليها إذا ما واجهت مشكلة مع إحدى صديقاتها.. كما كانت "شهد" أول من يعرف أخبار بوصلة قلب "سارة" وفي أي اتجاه تشير الآن.

هي الآن مشدودة لـ"شريف" زميلها في الكلية.. تتكلم عنه كثيرًا وتحكي لـ"شهد" عن محاولاته لجذب انتباهها إليه.. وتضحك "شهد" وتنتهز هذه الصداقة الحميمة بينهما لتروي لها حكاياتها القديمة مع ابن الجيران.. أول شاب ينبض له قلبها، وكانت وقتذاك في المرحلة الإعدادية.. صغيرة جدًّا على الحب .. لكن هذا ما حدث.

وتروي لها قصة طريفة عن هذا الحب الأول: ضبطت أمها ورقة صغيرة في شرفة منزلهم معلقة في مشبك غسيل، وفتحت الأم الورقة لتقرأ كلمات حب موجهة إلى "شهد" من "حسام" جارهم الشاب، وابن صاحب العمارة التي يقطنونها.

قامت الدنيا ولم تقعد.. استدعت الأم الشاب الصغير لمقابلتها، وعنفته بشدة ولم تتركه يذهب إلا بعد وعدٍ منه بألا يتكرر هذا، وإلا شَكَتْ لوالده.

وتضحك "سارة" وتداعب "شهد" بأسلوبها الشبابي المرح:

- آه يا "مُـزّة" ! كل ده يطلع منك يا "شهد"؟

كانت "شهد" تؤمن أن تضييق المسافة بينها وبين "سارة" مهم، وعلاقة الصداقة التي يسمح فيها بكل شيء هي المطلوبة، لكنها في الفترة الأخيرة ومنذ بدأت رحلتها مع الماضي، أصبحت مشوشة كثيرًا، لا تستطيع الجلوس مع "سارة" لفتراتٍ طويلةٍ مثلما كانت تفعل من قبل.

أعلنت "سارة" غضبها واعتراضها أكثر من مرة على هذا العبث الذي تضيع فيه "شهد" وقتها، ورغم ذلك كانت تطير فرحًا عندما تفاجئها أمها بصورةٍ عجيبةٍ أو غريبةٍ لها في طفولتها، أو توقف شريط فيديو من تلك الشرائط المسجل عليها أعياد ميلادها، فـترى أصدقاءها وصديقاتها عندما كانوا أطفالًا فتصيح غير مصدقة:

- معقولة؟ هو ده "شـريف".. ودي "أمـيرة" ودي "حبيبة".. وده "عمر"؟ كان شكله غريب قوي بالطرطور ده!

أي إن العـلاقة بين "شهد" و"سارة" تتنازعها خيوط عديدة بين مدٍّ وجزرٍ.. اختلاف واتفاق.. تمرُّد وتعلُّق.. لكنها في كل الأحوال علاقة حب عميقة بين أم متدفقة المشاعر وابنتها الشابة المنطلقة بكل حرية.

استيقظت "شهد" متعبة مشوشة.. فتحت عينيها المرهقتين بصعوبة، لترى كل الأشياء من حولها يلفها الضباب، فركت عينيها ونظرت إلى المنبِّه على "الكومودينو" بجوار السرير فنهضت من سريرها مفزوعةً، وقالت لنفسها: "إنها العاشرة.. كان المفروض أن أستيقظ في التاسعة على الأكثر حتى أعد الأشياء المطلوبة لرحلة "فايد" اليوم.

شعرت بثقلٍ غريبٍ بجسدها وألم في عظامها.. هل هي سهرة الأمس التي استغرقتها تمامًا، وأشعلت حواسها حتى نسيت النوم وظلت حتى قرب الفجر مستيقظةً بكامل حيويتها وتركيزها؟

بالأمس خرج الجميع من البيت.. "أحمد" كان على موعد مع أصدقائه، و"سيف" قضى ليلته في بيت صديقه "نادر"، أما "سارة" فكانت في رحلة مع الكلية إلى شرم الشيخ.

فرصة ذهبية.

هكذا أحست "شهد".. أحيانًا يحتاج الإنسان إلى أن يكون مع نفسه.. نفسه وحدها ولا أحد سواها.

في هذه الليلة وجدت نفسها مدفوعة إلى الركن الحميم الملفوف بسياج من السرية التامة، الشكمجية الخشبية التي تدس داخلها أوراقها الخاصة،

وذكرياتها الأثيرة التي لا يمكن أن تبوح بها لأحد.. مهما كانت درجة قربه منها.

جلست على "الفوتوي" بغرفة النوم.. أضاءت الأباجورة الجانبية بعدما التقطت الشكمجية من مكانها السري تحت الملابس في أرضية الدولاب.. فتحتها بلهفةٍ وقلَّبت الأوراق.. الورد المجفف.. أوراق الهدايا الملونة.. الصور الفوتوغرافية.. العملات النقدية والورقية والمعدنية لبلاد مختلفة.. الخطابات الغرامية.

امتدت يدها إلى كراسة صغيرة ترقد تحت الأوراق في أرضية الشكمجية احتفظت فيها بذكرياتها.. كانت تهوى البوح على الورق كأنها تطلق السراح لمشاعرها المعتقلة وتمارس الحياة كما تريد، لا كما ينبغي أن تفعل.

قلّبت أوراق الكراسة وتوقفت عند تاريخ 4 من نوفمبر 1998 وقرأت ما كتبته تحت هذا التاريخ.. منذ عشر سنوات.

"شحنة عجيبة من المشاعر تضعني في حالة من النشوة والتيقظ.. أشياء كثيرة يمكن أن يشعر بها الإنسان، لكنه لا يستطيع وصفها أو التعبير عنها.. كنت في ذلك اليوم مدفوعةً برغبةٍ جارفةٍ في لقائك، وكان شوقي إليك طاغيًا.. أريد أن أنظر إلى عينيك، وأغوص في أعماقهما.

كم من الوقت مضى منذ اللقاء الأخير؟ لا أذكر.. فقد كنت أستدعيك.. أستحضرك في عيون حواسي.. وأجدك.

هل تؤمن بالذاكرة الوجدانية؟ أنا أؤمن بها لأنني تعاملت معها وعرفتها.. إننا كبشر نفعل ما يفعله الكمبيوتر تمامًا.. نختزن أيامًا بعينها وتكتبها

ذاكرتنا الوجدانية وتحفظها لسنوات، ربما تمتد للعمر كله، فإذا ما طلبناها نجدها أمامنا تومض على الشاشة للحظات.. لدقائق ربما، ثم تعود لتبقى في ركنٍ آمنٍ.. هناك.. في نقطة عميقة من القلب..

هذا ما حدث.. كنت معي طوال السنوات التي مضت.. أتابعك عن بعد، وأعاتبك عن بعد، وأمتلئ بشحنتك الخاصة من بعيد.. وأحتفظ بقصة الحب الحقيقي للرجل الوحيد الذي تمنيتُ أن أحبه.. وأحببته.

وعاش التساؤل داخلي دون إجابة .. هل يمكن أن يعيش الحب بلا وقود؟ إن وقود الحب هو التواصل.. الاقتراب.. الاحتواء.. الارتواء.. فكيف عاش حبِّي - ولا يزال - رغم المسافات الطويلة والأزمنة البعيدة التي حاصرته؟

وكنت أتساءل: هل نلتقي يومًا؟ هل يمكن أن تكون مثلي، تحفظ ذاكرتك الوجدانية أيامنا معًا بكل تفاصيلها وإحساسها الخاص؟

وأتساءل: هل لو التقينا الآن سنجد الإحساس نفسه الذي كان؟ أم أن منطقة المشاعر بالغة الرقة، ويمكن أن يكون الزمن قد أصابها بالكثير من الخدوش والشروخ؟

ومضت الحياة.. كلٌّ في طريق.. لكن حلم اللقاء لم يتوارَ أو يضعف، ومنذ أيام تحقق هذا اللقاء.. وجدتُ نفسي عصفورةً تنطلق بفرحةٍ طفوليةٍ إلى أعلى سماء.. رأيتك بعيني واحتضنتك بقلبي، وتفجرت فيَّ لحظات أحاسيسي المخبوءة.. أنت معي الآن.. تتسارع نبضات قلبي قوية.. تكسو

الفرحة بشرتي بلون الورد.. تتفتح في عينيَّ نضرة الحياة.. عندما تتفاعل كيمياء المشاعر، وتلوّن الأشياء من حولك.. فهذا هو الحب..

الحياة يمكن اختصارها في تلك الأوقات النادرة، التي نعيش فيها الحب بكامل كياننا.. اعتقدت أنني لن أمسك بهذا الإحساس.. تصورت أنه أفلت من بين أيامي، واكتفيت بأن أذهب إليه بخيالي كلما اجتاحني الشوق والحنين.

هل أراك مرةً أخرى؟ لا أدري.. أخشى أن تتسلل لحظات الحلم من جديد.. لكني - رغم كل هواجسي - أرى حقيقةً ساطعةً لا تتغير.. أرى شمسك في حياتي لا تغيب حتى لو توارت خلف السحب البعيدة".

احتضنت "شهد" كراستها الصغيرة بين كفيها بحبٍّ، كأنها تحتضن جزءًا منها.. وشردت في دوامة الذكريات، لتستعيد القصة من بدايتها..

قصة الحب المشتعلة بينها وبين "خالد" في كلية التجارة بجامعة القاهرة، قبل خمس وعشرين سنة.. نقطة الصراع التي عصفت بمستقبل هذا الحب عندما حصل "خالد" على منحة لدراسة الدكتوراه في الولايات المتحدة الأمريكية بجامعة كاليفورنيا، وأصرت "شهد" على ضرورة أن يتقدم لأهلها ويخطبها قبل السفر، ثم تلحق به بعد سنة أو سنتين، لكنه رفض هذه الخطوة قبل أن يدعم مستقبله المهني والعلمي.. ثم كان شعورها بالخذلان وإحساسها بالجرح العميق من موقف "خالد" سببًا لقبولها الزواج من "أحمد" الذي كان معيدًا في الكلية نفسها، ثم ترقَّى في سلك التدريس الجامعي.

وتتوقف "شهد" عند مفاجأة الأقدار.. يظهر "خالد" مرةً أخرى في حياتها، لكن في كادر جديدٍ وموقفٍ مختلفٍ.. تفاجأ به مديرًا جديدًا للبنك الذي تعمل به منذ خمس عشرة سنة.

لقاءٌ مدوٍّ لكليهما، كأن السنوات الفائتة لم تطفئ جمرة المشاعر التي يحملها كلاهما للآخر، بل زادتها اشتعالًا!

عادت العلاقة بين "شهد" و"خالد" بعد مقاومةٍ لم تصمد طويلًا من "شهد"، وولد منذ ذلك اليوم داخلها صراع عنيف بين الرغبة والواجب.. الحب والضمير.. الإخلاص لحبيبها والخيانة لزوجها.. وظلت "شهد" فريسة هذا الصراع الدامي حتى أنهاه القدر بواحدةٍ من مفاجآته المدهشة.. مرض خالد.. افترسه السرطان ولم يصمد أكثر من عامٍ واحدٍ.. مَاتَ وترك "شهد" تجتر الذكريات بقلب ممزق، وحنينٍ دائمٍ إلى الحب الوحيد في حياتها..

قضى "أحمد" ليلته مع "فاتن".. استخدم كعادته غطاء الأصدقاء ليبرر به تأخره حتى الثانية صباحًا في ليلة الخميس.. كان هذا الموقف يثير أعصاب "شهد" فيما مضى، أما الآن وبعد أن ماتت مشاعرها تجاهه تمامًا، فلم تعد تعبأ كثيرًا بتأخره اللافت عن بيته، في تلك الليلة التي كانت تعني لها الكثير في سنوات زواجهما الأولى.

فتح باب غرفة المكتب ليجد "شهد" مستغرقةً كالعادة في تفحص أوراقها.. حيَّاها تحيةً باردةً بصوتٍ فقدت نبراته الإحساس، واتجه على الفور إلى غرفة نومه.. بدّل ثيابه واستلقى على سريره، وأضاء الأباجورة بعدما أطفأ أنوار الغرفة وبدأ يقرأ كتابًا.. بعد دقائق قليلة ألقى الكتاب على السرير إلى جانبه، كانت مشاهد الليلة تتتابع في خياله عامرة بالإثارة، بدأت باستقبال سخي من عشيقته، التي تتفنَّن دائمًا في صنع الجو الأثير لديه.. مائدة تتضمن كل أنواع المزات الباردة والساخنة والمكسرات.. زجاجة الـ"شيفاز ريجال" نوع الويسكي المفضَّل لديه.. الموسيقى الصاخبة التي يعيش مع إيقاعاتها الصارخة شبابه المخبوء خلف هالة من الوقار يفرضه عليه وضعه الاجتماعي كأستاذٍ جامعيٍّ وأب ورب أسرة.. إنه في مثل تلك الأمسيات يفك أسر نفسه الظَّمْأى إلى الجنون.. إلى الانطلاق.. إلى كسر القيود جميعًا التي تكبّله طول الوقت في الجامعة.. في البيت.. ومع الأصدقاء.

لذلك فهو ينتظر تلك الليلة طوال الأسبوع، ويحترق شوقًا للقاء "فاتن" التي تمنحه فرصةً لممارسة الجنون.. "فاتن" التي تداعب رجولته، وتثبت له في كل مرة يذوبان فيها معًا في نار اللذة وفوران الرغبة أنه رجلٌ لا يزال، وأن هناك امرأةً كاملة الأنوثة تصهد بالحرارة تحت جسده، ترتوي بمياه النشوة، وتتأوَّه بصوتٍ مثيرٍ بين ذراعيه.

فقد "أحمد" إحساسه بـ"شهد" كأنثى منذ سنوات، وخاصم جسده جسدها خصامًا تامًّا، شجعته هي على ذلك.. لم تشكُ.. لم تعترض.. كأنه اتفاقٌ غير معلن قد أبرم بينهما، على أن يعيشا تحت سقفٍ واحدٍ كالغرباء.. أو كالإخوة.. لا تتحرك في جسديهما أية رغبة جنسية مهما اقتربا أو تلامسا.

أصبحت "شهد" بالنسبة له إنسانةً عزيزةً يكنّ لها حبًّا من نوعٍ خاص، ولا يستطيع تصور الحياة بدونها، فهي رفيقة الحياة والمشوار، وقائدة سفينة حياته، وأم أولاده "سيف" و"سارة"، وشريكة مؤسستهما الاجتماعية الناجحة، التي يشهد الجميع بتماسكها واستقرارها.

لذلك فهو حريص كل الحرص على استمرار مؤسسة زواجه، يلبِّي كل المتطلبات الأساسية التي تضمن نجاحها.. بنى بتحويشة العمر فيلا رائعة في تصميمها، راقية في أثاثها وديكوراتها، دافئة بأنفاس البشر المعطرة بالحب التي تسكنها.

فلم يكن "أحمد" أستاذًا جامعيًّا عاديًّا، بل كان معروفًا بقدراته العالية في الإدارة، وسابقة إنجازاته في تأسيس أقسام وكليات تجارة وإدارة أعمال بجامعة الملك عبد العزيز آل سعود وجامعة الكويت وجامعة البحرين،

كذلك كانت تعهد إليه كبرى المنظمات العالمية التي تعمل في مصر، بالإشراف على مشروعاتٍ علميةٍ ضخمةٍ، تتبع اليونسكو ومنظمة الغذاء العالمي وغيرها.

لذلك لم يكن دخله الجامعي يمثل حجر الزاوية في إقامة حياته، بل كانت تلك المهمات العلمية التي ينجزها ببراعةٍ مشهودٍ له بها هي التي تضعه في مستوى اجتماعي ومادي ميسور، وتمكنه من توفير هذا المستوى الراقي لزوجته وأولاده.

وكان "أحمد" يؤمن بأننا نعيش الحياة مرةً واحدةً غير قابلة للتكرار، لذلك كان يعيشها بأسلوب الأوربيين والغربيين .. يهتم بإجازة عطلة الأسبوع ويعد لها الخطط المسبقة، ويجمع الأصدقاء المقربين أحيانًا ليشاركهم هذه الأوقات الخاصة.

اشترى شاليه في "فايد"، وأصبح هذا الشاليه منذ سنواتٍ بعيدةٍ المكان الأثير للأسرة والأصدقاء لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، وإقامة المناسبات الاجتماعية الخاصة مثل أعياد الميلاد أو حفلات النجاح، وكذلك عيد زواج "أحمد" و"شهد"، الذي كان يحرص "أحمد" على إقامته سنويًّا، ويدعو إليه الأقارب والأصدقاء المقربين.

أي إن "أحمد" كان زوجًا وأبًا مثاليًّا.. هكذا يبدو في نظر الكثيرين، وهكذا يرى نفسه، فهو يؤمن بأنه لا يقصِّر إطلاقًا في حق من حقوق زوجته وأولاده، بل إنه يضعهم دائمًا على قائمة أولوياته، وفي أحيان كثيرة على رأس تلك القائمة.

أما خـياناته المتكررة لـ"شهد" فهذه يعتبرها ذنبًا يتحمـله وحـده، ما دام لا يسبِّب لها إيذاءً نفسيًّا أو ماديًّا.. تلك قناعاته، وهذه هي طريقته في تبرير أفعاله وتحليلها، وبهذه الطريقة يروِّض ضميره لقبول خطاياه وتمريرها، واعتبارها أخطاءً صغيرةً لا بد أن تنتج عن الضعف الإنساني الذي خُلقنا به.

فكيف لرجل مثله أن يكتفي عاطفيًّا وجنسيًّا بزوجةٍ واحدةٍ؟ صحيح أن "شهد" جميلة، وكانت مثيرة بالنسبة له في سنوات زواجهما الأولى، لكنها وحدها لا تستطيع أن تشبع نهمه الدائم إلى اللذة الحسية، ولا تهوى مثله الغوص في بحور الرغبة.

لذلك فهو يكمل الجزء الناقص، ويحس مع "فاتن" الآن بكل ما يفتقده في "شهد".. يحب كُلًّا منهما ولا يتصور حياته دون أيٍّ منهما، وبهذه القناعة يصوغ علاقتيه المتوازيتين بهما، كأنهما قضيبا القطار الذي يسير عليهما.. لابد أن يظلا معًا حتى يعيش سعيدًا منتعشًا.

غلبه سلطان النوم فجأة، كأن ستارة العرض الجميل قد أسدلت وانطفأت أنوار المسرح.. غاص في سريره وجذب الغطاء إلى كتفه باستمتاع، لكنه تذكر موعد رحلة الصباح.. لقد واعد "طارق" و"ليلى" و"شهد" و"سيف".. لا بد أن يضبط المنبه حتى يمكنه الاستيقاظ في الثامنة صباحًا.

ضبط منبه الموبايل، ثم ثبّت القائمة على مفتاح الرسائل كأنه تذكَّر شيئًا مبهجًا، فتح رسالة جديدة، وكتب على شاشة الموبايل: "أحبك"، ثم ضغط على زر إرسال.. إلى فاتن.

أطفأ نور الأباجورة.. واستسلم لنومٍ عميقٍ..

وصل "طارق" إلى فيلا "أحمد خيري" في التاسعة صباحًا حسب الموعد.. كانت "ليلى" معه هذه المرة.. اختارت أن تسافر إلى مصر وباركت ذلك "جيسيكا".. فتح لهما "سيف" الباب لأن شهد كانت نائمة.

دعاهما "سيف" إلى فنجان شاي قبل أن يبدأوا جميعًا رحلتهم إلى فايد.. وبعدما يزيد بقليل على الساعة وجدوا "شهد" و"أحمد" يقولان في إجهاد:

- صباح الخير.

- صباح النور.. إيه التأخير ده؟

قالها "طارق" باسمًا بلهجة لا تخلو من العتاب، لكنه لاحظ آثار الإرهاق مطبوعةً على وجه "شهد" رغم الحفاوة والترحيب اللذين استقبلته بهما.. سألها باندهاش:

- مالك يا شهد.. انتي مانمتيش كويس إمبارح؟

ارتبكت قليلًا، وقبل أن تجيب عن السؤال، قاطعها "أحمد" بسخرية وتندُّر:

- أصلها يا سيدي مشغولة جدًّا اليومين دول.

كانت عينا "طارق" تتنقل بينهما، كأنه يريد أن يقرأ في تعبيرات وجهيهما وردود أفعالهما حقيقة العلاقة القائمة بينهما الآن، خصوصًا أنه يلاحظ منذ الزيارة السابقة أن تغيُّرًا جوهريًّا قد طرأ على تلك العلاقة، وعلى حياة "شهد" بصفة خاصة.

في دقائق أعدَّت "شهد" كل احتياجات الرحلة.. ثلاجة المأكولات والمشروبات، وكذلك حقيبة كبيرة وضعت بها أغراضهم.. هذا ما اعتادت مع "أحمد".. التحضير الجيد لرحلات عطلة نهاية الأسبوع.

وواصل "أحمد" كلامه:

- مشغولة بالماضي، عمرك شفت حد عايش في القرن الحادي والعشرين.. اللي كل الناس بتجري فيه، يقف ويحاول يرجع الشريط من أوله؟ آهي "شهد" يا سيدي غرقانة لشوشتها في الحدوتة دي.

قبل أن يأخذهم الحوار إلى تفاصيل الحكاية، وقف "أحمد" معلنًا الاستعداد لمغادرة المكان، وقال:

- حكاية "شهد" دي يا "طارق" هاحكيها لك في فايد.. لأني فعلًا محتاج أتكلم فيها وكويس إنك معانا النهارده.. علشان هي بتقتنع بكلامك.. لكن دلوقت .. لازم نبدأ الرحلة علشان الوقت ميسرقناش .. ياللا يا "ليلى" ياللا يا "سيف".

* * *

كانت الأشجار تتسابق بينما تشق السيارة الطريق السريع متجهةً إلى فايد، وكان اللون الأخضر الذي تكتسي به الأشجار مريحًا، كأن المنظر الطبيعي

الخلاب يغسل النفس من القُبح المستشري في عاصمة المعز.. حيث تشيخ الأشجار ويختنق البشر.

السفر فرصة للاختلاء بالنفس.. والغوص في الأعماق.. هذا ما حدث خلال التسعين دقيقة التي استغرقتها الرحلة من الشيخ زايد إلى فايد.. خمسة أشخاص وخمس حكايات.. شرد كل منهم مع الموسيقى الجميلة التي يبثها البرنامج الموسيقي، ومنظر الأشجار المترامية على جانبي الطريق، كأن السيارة قد تحولت إلى دار عرض سينمائي، تتجاور قاعاتها الخمس لتعرض خمسة أفلام مختلفة في وقت واحد.

تقتحم ذاكرة "شهد" مشاهد من قصة حبها الوحيدة مع "خالد" ليلة عيد ميلادها.. والخاتم الذي صمَّمه بنفسه، وكلف الجواهرجي بصناعته.. هذه التحفة الفنية التي تحتفظ بها حتى الآن.. أسلوبه الدافئ في الاحتفاء بمحبوبته.. أغنية "save your love" ورقصهما معًا على أضواء الشموع.. ممارسة الحب بعد ليلة لامسا فيها القمر، كانت أشبه بالتحليق في السماء بأجنحة طائر مُنْتَشٍ، مزهو بذاته، يتمنى لو يحتضن الدنيا.

يعيش "أحمد" مشاهد أخرى يدندن مع الموسيقى، بينما تقفز لقطات من وصلة الرقص الشرقي التي أدتها له "فاتن" بالأمس، ويتذكر كيف تسللت إليه حرارة إحساسها بالإيقاع الراقص، وشاركها الرقص بسعادةٍ وانسجام.

بينما يغوص "طارق" في ذكرياته الحزينة مع جيسيكا.. تتبدى له أحداث اليوم الأخير قبل سفره إلى مصر.. تومض في ذاكرته.. يستدعي كلماتها المؤثرة، وهي تطلب منه أن يمضي في طريقه ويتركها لألمها المقيم، ويتراءى له

منظر وجهها الذي زادته مأساتها هِرمًا، وأضافت إلى خطوطه وتجاعيده الكثير، يسمع صوتها يتوسَّل إليه أن يأخذ "ليلى" معه، وأن يبعدها عنها في هذه الفترة العصيبة حتى لا تراها وهي في هذه الحالة.

ولم تكن "ليلى"، الفتاة الجميلة التي تختلط في عروقها الدماء الشرقية والغربية، أفضل حالًا من "طارق".. كان وجه أمها يلاحقها في كل مكان، ويخترق منظر الأشجار ليظهر من بين أوراقها باكيًا.. كان قلب الصغيرة مليئًا بالأحزان، فهذه هي أمها.. المرأة المفعمة بالإنسانية التي حوَّلها إدمان الخمر إلى كائنٍ هش، وروحٍ كليلة.

أما "سيف" فقد كان منجذبًا بكل حواسه لتأمل وجه "ليلى".. كان الشجن المطل من عينيها العميقتين يوقظ مشاعره، وكانت ملامح وجهها المرسومة بلون الحزن تخدش قلبه.. شرد مثلما فعل الأربعة الآخرون يسأل نفسه: ما هذا الذي أحسَّه تجاه "ليلى"؟ كيف يحدث هذا وأنا مرتبط بـ"عالية"؟ هل يمكن أن يتسع القلب لاثنتين في وقتٍ واحد؟ أم أن انجذابي لـ"ليلى" مجرد إحساس وقتي عابر؟

شيء ما في وجهها يدعوني إلى الغوص في أعماق هذه الفتاة.. شيء ما يملأ قلبي شغفًا في الاقتراب منها.. شيء ما يدفعني لأن أغوص في الأحزان الراقدة في عينيها.. شيء ما يبهرني في هذا النموذج الفريد، الذي يجمع بين جمال الشرق وروحه وبين المسحة الغربية المحببة.. هل هو جمالها المختلف؟ هل هي ثقافتها وأسلوب حياتها، الذي يبتعد كثيرًا عن فتيات مثلها وفي نفس سنها، ويتسمن بالسطحية الشديدة والبعد الكامل عن الثقافة والفكر؟

ما الذي يشدني إليك يا "ليلى"؟ وكيف استولى وجهك الهادئ وملامحك المستسلمة على كياني بهذه السرعة؟

لقد أحسّت "عالية" بهذا التغيُّر وعلقت عليه.. قالت إن ذهني مشغول.. ارتبكت، لكني خشيت أن أكلمها عنك.. لا أعرف لماذا، رغم أنني أحكي لها عن كل شيء.. كل أسرار حياتي مع "عالية"، حتى حالة أمي "شهد" في الفترة الأخيرة وقلقي الشديد عليها.. كل هذه الحكايات تعرفها "عالية"، ولا أشعر بأي حرج في أن أعرِّي حياتي بالكامل أمامها.. فهي صديقتي الحميمة، وهي مشروع حبيبة وزوجة المستقبل.. فماذا حدث؟ لماذا أخفيت عن "عالية" ما يحدث لي منذ رأيتك يا "ليلى"؟ هل ستنقلب حياتي وخططي ومشاريعي في المستقبل بسببك؟ أم أنها مجرد مشاعر عابرة ستمضي بعيدًا عني مع رحيلك؟

استمرت الحكايات الخمس في القاعات الخمس المتجاورة في دار العرض السينمائي.. وعندما انتبه الجميع إلى أن الرحلة انتهت ، وأنهم وصلوا إلى "فايد"، بدأ كل منهم يخرج من دائرة شروده، ويستعد للاندماج مع الكل.

تشارك الجميع في إنزال الحقائب وثلاجة المأكولات والمشروبات "الآيس بوكس".. اتجهت "شهد" و"ليلى" إلى المطبخ حيث أفرغتا محتويات الثلاجة والحقائب، بينما انشغل "أحمد" و"طارق" و"سيف" في وضع الكراسي والكنب البامبو الخاص بالحديقة في مكانه، وإعداد الشواية للـ"باربيكيو".

أعدت "شهد" الشاي والكيك، وقامت "ليلى" بإنزال الصينية وأطباق الكيك إلى الحديقة.. كانت الشمس مشرقةً والجو صافيًا بديعًا.. دعا "أحمد" "طارق" إلى دور شطرنج، بينما ذهبت "ليلى" لتختار أسطوانة الموسيقى، وانشغل "سيف" مع أمه في المطبخ.

سمعت "شهد" صوت "طارق" يناديها:

- ياللا يا "شهد" الشاي حيبرد.. تعالي اشربي الشاي معانا.. لسه بدري على الغدا.

أجابت من داخل المطبخ:

- حالًا.. جاية حالًا يا "طارق".

جلست "شهد" تشرب الشاي.. أخذت نفسًا عميقًا ورفعت وجهها في اتجاه السماء، في حركة تنم عن استمتاعٍ كاملٍ بدفء شمس ذلك اليوم وصفاء جوه.

وقعت عيناها فجأة على "طارق" لتجده محدقًا فيها، مركزًا، مستغرقًا في تأمل حركاتها وإيماءاتها ، كأنه طبيب يحاول أن يضع يده على مفتاح التشخيص لحالة مريض.

أدهشها هذا التحديق اللافت لكنها أدركت السبب أو توقعته.. لا بد أن زوجها قد حكى لصديقه الحميم عن تصرفاتها في الفترة الأخيرة.. هكذا يقول "أحمد" ويصف الموقف.. حدث ذلك عندما سمعته دون قصد يتحدث إلى أمه في التليفون، وكذلك عندما تكلم مع صديقتها المقربة "حنان"، فهو يعتقد أن زوجته تمر بحالة نفسية، وأنها في حاجة إلى علاجٍ نفسي، لذلك فهو يحاول أن يقنعها بذلك عن طريق أطرافٍ أخرى، بعدما فشل في أن تستجيب لنصيحته.

قالت لنفسها:

"من المؤكد أنه حكى لـ"طارق" كل شيء، وأوحى إليه بأنني على وشك الجنون، لماذا يحدِّق "طارق" في وجهي بهذا الشكل؟ لماذا يختلس النظرات ويراقب حركاتي وتصرفاتي من بعد ؟

فاجأها "طارق" بسؤالٍ كسر الصمت الذي ساد الجميع برهة:

– إيه حكاية الماضي معاكي يا "شهد"؟

ارتبكت قليلًا ثم ندت عنها ابتسامة، كأنها تحاول أن تبدو متماسكةً وطبيعيةً.. قالت:

- الماضي يا "طارق" جزء من حياتنا، وفي عمرنا ده هو كل حياتنا.

كان "طارق" يركز بكل حواسه في حواره مع "شهد"، كأنه يحاول النفاذ إلى أعماقها، وقراءة ما يدور هناك.

فاجأته بسؤال:

- ألا تعيش الماضي يا "طارق"؟.. ألا تشعر أن الجزء الباقي من حياتنا ما هو إلا تحصيل حاصل؟

أجابها باهتمام كأنه نسي المكان الذي يجلس فيه بين أصدقاء في حديقة، واندمج في الحوار كما لو كان في ندوة ثقافية يدلي فيها كل متحدث بما يراه أو يعتقده، فقد كانت هذه القضية التي ألقت بها "شهد" ببساطة دون أن تدري تدور في أعماقه، لذا فقد حرّكت بهذا السؤال العفوي بحيرة تفكيره، فتماوجت الدوائر الصغيرة في ذهنه، لتتسع إلى دوائر أكبر فأكبر.

- تعرفي يا "شهد" إن سؤالك ده هو محور القضية اللي بتشغل تفكيري دلوقت، وبدأت فعلًا أكتب عنها.

بفرحةٍ واهتمامٍ قالت "شهد":

- صحيح يا "طارق".. ده هيبقى كتاب مهم إوعدني إني أقراه قبل أي حد.. إنت عارف إني بحب القراءة، وده موضوع مهم محتاج دراسات وكتب عميقة زي كتبك يا "طارق".. فيه ناس كتير حتشتري الكتاب ده.. ومش بعيد يبقى "best seller".

ابتسم "طارق"، أسعده هذا الاهتمام من "شهد"، وشحنه ليبدأ كتابه عن الحنين إلى الماضى، أو ما يسميه أدباء الغرب بالـ "nostalgia"، وقال لها:

- لكنك يا "شهد" سوف تشاركين في هذا الكتاب.

قالت باندهاش:

- كيف؟

قال:

- حرتّب معك جلسات عمل.. تحكي فيها عن كل اللي بتعيشيه وتحسيه لما تستدعي أحداث الماضي.. ده جزء مهم جدًّا في الكتاب.. الجزء المبني على التجربة الحية، وفي كتب الغرب بيهتموا جدًّا بالجزء ده لأنه هو اللي بيوصل للناس ويرسخ الفكرة اللي الكاتب عاوزها توصل للقراء.

ازداد اهتمام "شهد"، وبدأت تفكر في هذا المشروع الجديد، الذي سوف يحتل جزءًا مهمًّا من تفكيرها من الآن، فالمادة جاهزة والفكرة رائعة، يكفي أن تجد من يشاركها التفكير فيما تستغرق فيه وحيدة.. يكفي أن تجد شخصًا واحدًا في الدنيا يتفهم ما يدور داخلها، ولا يعاملها على أنها مريضة نفسية أو امرأة مخرّفة تعبر مضيق منتصف العمر، وتقف على أعتاب الشيخوخة.

قبلة طبعها "سيف" على جبين "شهد" قبل أن يتوجَّه إلى الجامعة في الصباح، بدا اليوم مشرقًا بشمسه الدافئة وجوه الصحو، وبدت "شهد" منتشيةً نشيطةً محبة للحياة.. امتلأ "سيف" بتلك الشحنة الإيجابية التي تسللت موجاتها إليه.

فـ"شهد" بالنسبة إليه ليست الأم الحبيبة فحسب.. إنها الشمس التي تتغيَّر حالته المزاجية والنفسية تبعًا لتغيراتها، فإن أشرقت أشرقت معها أيامه، وإن غابت خلف السحب ملأ الخوف قلبه واحتلته الهواجس.

كانت "شهد" تستعد لأول جلسة عمل مع "طارق".. قامت من الصباح الباكر في حالة نشاط، أخذت "الشاور" الصباحي، وارتدت البنطلون الجينز وبلوفر قطنيًّا أزرق، نثرت قليلًا من عطرها المفضل على ملابسها، ولم تنسَ أن تضع قليلًا منه عند أطراف أصابعها وترفعها إلى أنفها، وتأخذ نفسًا عميقًا مستمتعةً بالرائحة التي تنعشها، وتجعل الإحساس بالحياة يسري في مسامها، ولم يفتها أن تكمل اللمسة الأخيرة بضرباتٍ سريعةٍ متلاحقةٍ من فرشاة البودرة على الجبهة والخدين.

شربت "الماج" الصباحي المعتاد.. شاي مع حليب دون سكر، ثم أعدت قهوتها التي تحب أن تكون البداية الحقيقية ليومها.. فرائحة القهوة التركية

تحديدًا (ليست النسكافيه أو القهوة الأمريكاني أو الإكسبريسو) هي التي تفك معاقل تفكيرها، وتطلق سراح عشقها للحياة.

كانت "شهد" مأخوذةً بالتجربةِ الجديدةِ، تسيطر عليها مشاعر طفولية متضاربة ومتداخلة، فهي – لا شك – سعيدة بتلك الشراكة مع إنسان تحترمه وترتاح إليه مثل "طارق"، وهي فرحة كذلك لأنها من الآن – وبشهادة "طارق" الأستاذ الجامعي المعروف بجامعة أوكسفورد والكاتب المحترف – ليست مريضة نفسية، ولا هي إنسانة مخبولة، بدليل أنه قرر أن تشاركه تجربتها الشخصية في كتابه عن الـ"نوستالجيا" أو الحنين إلى الماضي.

كما أنها مطمئنة إلى أن هذا المشروع المشترك، الذي من المفترض أن يبدأ اليوم، سوف يستمر ويكتمل، والسبب في هذا الشعور بالاطمئنان هو مباركة "أحمد" زوجها له، فقد شعرت أنه متحمس – ربما أكثر منها – لكي تبدأ مع "طارق" هذه التجربة.. إذن فلا مشكلة سوف تعترض الـمُضي فيها، وإنجاز شيء مهم لكلا الشريكين.

وصل "طارق" أخيرًا.. تناهى إلى سمعها صوت سيارته وهي تدخل جراج الفيلا، قامت بسرعة لاستقباله، والبشاشة تطفو على وجهها:

– صباح الخير يا "طارق".. طبعًا مواعيد إنجليزي.. جاي في معادك بالضبط.. اتفضل.. تحب تشرب إيه؟

– قهوة تركي سادة من فضلك.

– حالًا.. هاعملها بنفسي علشان تشرب قهوة محصلتش.

تابع "طارق" "شهد" وهي تمشي بخطواتٍ رشيقةٍ فرحةٍ فابتسم، وتذكَّر كلام صديقه المقرب "أحمد" عنها، ووصفه لها ولحالتها النفسية التي جعلتها تكبر أكثر، وتبدو عجوزًا في الخمسين على حد قوله.

وردد "طارق" في نفسه وهو يتأمل هذا التناقض الإنساني الكبير:

- كم يتغير الإنسان.. الإنسان نفسه إذا ما وجد الشيء الذي ينقصه.. ها هي "شهد" تبدو اليوم في كامل شبابها ونشاطها وحماسها.. ها هي تلك المرأة التي يراها زوجها تعاني من حالةٍ مستعصيةٍ قد تؤدي بها إلى الجنون.. ها هي تستعد بحماسٍ وفرحةٍ للاشتراك في مشروعه الفكري حول الذاكرة.. ذلك اللغز.

عادت "شهد" تحمل الصينية وفنجاني القهوة وأكواب الماء المثلجة، ولم تنسَ أن تضع زهرة قرنفل بيضاء بجانب فنجان القهوة الذي قدمته إلى "طارق"، فزهرة القرنفل زهرتها المفضلة.

أحيانًا تهدينا السماء لحظات خالصةً من الصفاء النفسي والسكينة.. وأحيانًا نشعر أن الزمن الحقيقي الذي يجب أن نحسبه ونحفظه وتختزنه ذاكرتنا هو حصيلة تلك اللحظات النادرة المهداة من السماء.

هذا ما عاشته "شهد" وعاشه "طارق" في ذلك الصباح المشمس الهادئ.. شعرت "شهد" أن طوفان الذكريات ينهمر على عقلها مثل شلالٍ.. حكت واسترسلت.. بكت وابتسمت.. عاشت كل ذكرى من جديد، كأنها تخترق إطار الصورة القديمة، وتدخل وتذوب بين أشخاصها وأحداثها.

انفعل "طارق" وتفاعل مع كل حكاية وكل ذكرى، وتوقف مع "شهد" عند صور بعينها فجّرت بئر الحنين داخلها.. كان لا بد أن تتوقف الجلسة

الأولى، فالحياة صاخبة من حولنا لا تسمح لنا أبدًا بالاسترسال، والتمتع حتى الشبع بما نحب أو نسعد، إنها تنتزعنا انتزاعًا ودون استئذان تحت مسميات باردة لا روح فيها.. الالتزامات العائلية.. متطلبات الحياة.. التوازنات.. إلى آخره.

لكن الشريكين كانا قد اتفقا قبل نهاية جلستهما على جدول ثابت للقائهما.. ساعتين يوميًّا من العاشرة حتى الثانية عشرة صباحًا لمدة شهر، وهي فترة بقاء "طارق" في مصر قبل عودته إلى لندن.

لا أَنْتِ أَنْتِ

ولا الديارُ ديارُ

(**أبو تمام**)

والآن لا أنا أنا

ولا البيتُ بيتي

(**لوركا**)

ورقة صغيرة قدَّمها "طارق" إلى "شهد" مكتوب عليها تلك الأبيات.. قرأتها، ثم أعادت قراءتها، كأنها تفتش بين السطور عن شيء ما.. أحست لفحات المعاناة ذاتها التي تعيشها الآن.. لم تعلِّق، بل سكنها صمت الغوص في المعنى واستغرقها تأمله.

اخترق صوت "طارق" صمتها.. قال لها مبتسمًا:

- ما رأيك يا شهد؟ "أبو تمام" و"لوركا" اتفقا معي ومعك.. أليست مفاجأةً جميلةً؟

أومأت برأسها دون أن تتكلَّم.. فاستطرد "طارق" قائلًا:

- أتعرفين ماذا كتب محمود درويش عن هذا؟ في بداية ديوانه **"لا تعتذر عما فعلت"** قال: توارد خـواطر أو توارد مصائر.. واصفًا هذا التشابه الذي يصل إلى حدِّ التطابق في المعنى والإحساس بين الشاعر العربي والشاعر الإسباني.

أطالت "شهد" النظر إلى "طارق" مستغرقة في تأمُّل كل هذا.. أخذت نفسًا عميقًا وأطلقته، وقالت:

- كم يتشابه البشر.

قال "طارق":

- إنها التجربة الإنسانية التي تصهرنا جميعًا، وتنتج الخلاصة التي يمسك بها الأدباء ويعبِّر عنها الشعراء نيابةً عنَّا.

- والآن.. بِمَ نبدأ.. بألبومات الصور أم بشرائط الفيديو؟

أشار "طارق" بإصبعه إلى صفٍّ طويلٍ من الألبومات ، وضعته "شهد" على منضدةٍ صغيرةٍ استعدادًا للجلسة اليومية، وقال:

- نبدأ بالصور.. وبالمناسبة يا "شهد" أنا أعشق الصورة وأعتبرها كنزًا حقيقيًّا، فهي التي تحفظ لنا اللحظات الهاربة من حياتنا.. والذكريات التي تثبت لنا أننا عشنا الحياة فعلًا.. رغم كل ما ندَّعيه بأنها سرقت منَّا.. صور الأيام الجميلة والأشخاص الذين أحببناهم وأحبونا.. هؤلاء الذين غابوا عنا بأية صورة من صور الغياب.. بالموت.. بالسفر.. بالتحول الإنساني.. أعني تغيُّر الكيمياء!

- تقصد الذين جرحوا قلوبنا؟

- أقصدهم.. وأقصد غيرهم.. هؤلاء الذين كنا نظنهم أقرب الأصدقاء وأخلص البشر، ثم فتح الله عليهم بثروةٍ طائلةٍ، أو بمنصب كبير، فإذا بهم يتحولون إلى كائناتٍ أخرى غير هؤلاء البشر الذين أحببناهم وأحبونا.

ساد الصمت بينهما للحظات.. قام "طارق" واتجه إلى ألبومات الصور.. يقلِّب الأغلفة ويقرأ ما كتبته "شهد" على كل غلاف.. "أمي".. "الجامعة".. "البنك".. "أولادي".. "إخوتي".. "صور الزفاف".. "رحلات الخارج".. "رحلات داخل مصر".

وأخيرًا اختار "طارق" الألبوم المكتوب على غلافه "أمي" وعاد إلى مقعده.. جَالَ بهدوءٍ وتركيزٍ بين صوره بينما تسمَّرت عينا "شهد" على وجهه، كأنها تلميذة تحاول معرفة رأي أستاذها في مستوى واجبها المنزلي من خلال قراءة ملامح وجهه وهو يقرأ ويطالع.

هكذا ظلت "شهد" تركِّز نظراتها، وتنتظر أي تعليق أو سؤال من "طارق" حتى بادرها بالسؤال:

- كنتِ تحبينها..

أومأت شهد برأسها، بينما امتلأت فجأةً عيناها بالدموع، وأجابت بصوت مغموس في الشجن:

- كانت امرأة رائعة.

واستطردت:

- لم أكن قريبةً منها وأنا طفلة صغيرة.. كنتُ أخشاها، وكانت شخصيتها المسيطرة القوية تصنع مسافات بيني وبينها.. ثم كبرت قليلًا ووصلت إلى مرحلة الشباب والعناد والثورة فبدأت حروبنا الحقيقية.. هي تريدني أن أدخل عباءتها، وأنخرط في الإطار التقليدي المحافظ الذي تؤمن به، وأنا أرفض ذلك.

يبتسم "طارق" مندهشًا:

- يعني كنتِ متمردةً.. وكمان ثورية؟

- نعم.. اختلفتُ معها كثيرًا.. وشعرت في بعض المواقف أنني أكرهها لأنها لا تشعر بي، ولا تريد لي السعادة.

- أكيد كان السبب مشكلة عاطفية.

- نعم.. كانت أمي تخاف علينا، خصوصًا أنها ترملت ولعبت دور الأب والأم وحدها.

وتشرد قليلًا وهي تتذكر صورتها وتقول:

- أمي كانت صخرةً.. قويةً.. شجاعةً.. حكيمةً.. مليئةً بالحب.. متدفقة بالحنان، لكنها تخفي كل هذا تحت درع صلب من الحسم والحزم.

يستمع "طارق" إلى كلام "شهد" بتركيزٍ وتأثر.. يشعر أن كلامها ونبرة صوتها تلامسان مشاعره، وأن الشجن الشفيف الذي يغطي ملامحها وهي تحكي، يرسم لوحةً لوجه امرأة رائعة خلابة.. امرأة خرجت لتوها من أسطورةٍ إغريقيةٍ مفعمةٍ بالحبِّ والإثارة.

ما الذي يحدث إذا ثقب إنسان ثقبًا صغيرًا.. فتحة في حجم الدبوس، ودخل منها إلى حياتك؟ ماذا لو تحولت تلك الفتحة الصغيرة إلى شقٍّ يتسع يومًا بعد يوم، ليحفر لنفسه طريقًا بين صخور قلبك التي تكوَّنت بفعل ترسبات الزمن؟

ماذا لو فوجئت بنوعٍ غريبٍ من الاحتلال لوجدانك وأفكارك ومشاعرك؟ نوع ينفذ إلى مناطق النشوة والرضا والسعادة فيحركها، ويحفزها لتعمل وتعطي وتبدع؟

هذا ما حدث لـ"طارق" وهو يغوص مع "شهد" في بئر الزمن المفقود.. الزمن الذي حاول مارسيل بروست الروائي الفرنسي أن يبحث عنه في روايته "البحث عن الزمن المفقود".

و"طارق" كذلك - شأنه شأن الكثير من الكتَّاب والأدباء - انشغل بفكرة الزمن.. الزمن الذي يغيرنا ويغير من حولنا.. الزمن الذي ينفلت من بين أيامنا ولا نستطيع مهما فعلنا أن نستعيده حتى لو حاولنا استدعاءه.. قد يأتينا كالطيف.. كالحلم الجميل الذي نبتسم لرؤيته، ثم لا يلبث أن يتبدد ويختفي.

فهل ربط البحث عن الزمن المفقود بين "طارق" و"شهد"؟ هل فجَّر ينابيع الحنين داخلهما بينما تتجسَّد أحداث الماضي أمام ناظريهما من جديد؟

لقد أحدث ذلك اللقاء زلزالًا حرَّك الثوابت المستقرة منذ سنواتٍ بعيدةٍ في أعماقهما.. فهل كانت تلك المغامرة غير محسوبة؟ أم كانت مغامرةً عبقريةً كسرت حوائط الحسابات الجامدة التي تحولنا من بشر نحس ونحب ونبكي وننفعل ونلهو ونحزن إلى تماثيل أسمنتية كالحة اللون.. عديمة الإحساس؟.. آهٍ من تلك الحسابات.

لماذا لا نكسر الحوائط الباردة في حياتنا؟ لماذا نتركها تسحب منا إنسانيتنا دون أن نعترض أو نتمرد؟ لماذا نحسب كل شيء وكل خطوة نخطوها مائة ألف مرة؟ لماذا لا نحرِّر أنفسنا من أنفسنا؟

ظلت تلك التساؤلات تقفز في عقل "طارق" خلال تلك الليلة التي اختلى فيها بنفسه.. ذهبت "ليلى" إلى السينما مع صديقاتها.. وبقي وحيدًا، يداعب أفكاره وتداعبه، في خلوة كان في حاجة إليها، بل في أمَسِّ الحاجة لها.

لقد كان الأسبوع الأخير بينه وبين "شهد" أسبوع الاعترافات المتبادلة.. حكت له وحكى لها أشياءً لا تُقال، ولم يبُح أي منهما بشيء منها إلى أقرب الناس إليه.. أسرار لا يواجه بها المرء إلا نفسه.. وعلى استحياء.

فهل ما حدث بينهما كان أشبه بكسر الجدار؟ يتشابه التاريخ والجغرافيا مع الكيمياء أحيانًا، وكيمياء "طارق" و"شهد" شهدت تفاعلًا قويًّا أدى إلى كسر الجدار الذي يلوذ به كل إنسان، ويحفظ وراءه أدق أسراره وخصائصه، ومعنى كسر الجدار بين شخصيتين أن حدثًا جللًا قد وقع، مثلما حدث عندما كسر الألمان الجدار بين ألمانيا الغربية والشرقية.

أرأيتم كم تتشابه الجغرافيا والتاريخ مع الكيمياء.. كيمياء البشر؟

تعرَّت شهد تمامًا أمام "طارق" ، بل خلعت كلَّ أقنعتها ودروعها الإنسانية، فتحت الباب المغلق بألف قفل في حياتها.. حكت له قصتها مع "خالد".. روت وسط دموعها وكأس النبيذ في يدها كيف قاومت الوقوع في الخيانة، وشرحت لـ"طارق" ذلك الصراع الرهيب الذي كان يلازمها خلال سنوات العشق والذوبان مع "خالد".

- لم أشعر أنني امرأة إلا معه.

هكذا وصفت "شهد" علاقتها بـ"خالد"، وكان "طارق" يعيش معها بكل كيانه ووجدانه.. يتوحد مع مشاعرها ويذوب في تعبيرها الدقيق عما تحس.

كان "خالد" هو الحب الوحيد الذي خَفَقَ له قلبها.. سافر وتركها بحثًا عن طموحه العلمي والعملي، درس في أمريكا الدكتوراه وتفرَّقت بهما الطرق.. تزوجت من "أحمد" وتزوَّج هو من فتاة أمريكية.. وانزوت قصة حبهما في زاوية النسيان.. وإذا بالقدر يرتِّب لهما لقاء آخر، يعين "خالد" مديرًا بالبنك نفسه الذي تعمل به "شهد".

وبين شدٍّ وجذبٍ.. مقاومة وحنين.. تعود مياه العشق بينهما إلى مجراها.. وتعيش "شهد" بوجهين.. وجه مثالي لزوجة رائعة لـ"أحمد" وأم لطفلين جميلين، ووجه آخر حقيقي للعشيقة التي تذوب حبًّا في لحظاتها المسروقة مع "خالد".

حكت لـ"طارق" عن تلك المشاعر المتناقضة القاسية التي عاشتها في تلك الفترة.. السعادة المحلِّقة.. النشوة في ذروتها مع "خالد".. تعقبها نوبةٌ من عذاب الضمير تنزل عليها مؤنِّبةً، تدعوها للعودة إلى رشدها وأخلاقها ودينها، وأن تحفظ اسم زوجها الذي منحها الشكل الاجتماعي المحترم، وأولادها الذين منحهما الله لها كأغلى هدية.

روت كيف كانت تعيش بمشاعر يملؤها الخوف الذي يصل إلى درجة الفزع على أولادها.. تقتحمها الهواجس والأفكار السوداء.. سوف ينقلب أوتوبيس المدرسة بالأولاد في حادثٍ مروريٍّ.. سوف تقع ابنتي من البلكونة.. سوف يموت أحد أبنائي.. أو كلاهما.. سوف يعاقبني الله ويحرق قلبي لأنني عصيَّة وعاشرت رجلًا آخر غير زوجي، رغم أنني أشعر في قرارة نفسي أنه زوجي الحقيقي، أما "أحمد" فهو الزوج الرسمي.

- عشرات الهواجس.. عشرات السياط كانت تنهب هدوئي وتسرق سعادتي.. فقدتُ كثيرًا من وزني، وكنت لا أنام إلا بالمهدئات طوال تلك السنوات الثلاث التي استمرت خلالها علاقتنا.. سنوات السعادة والألم.. السعادة في أقصاها والألم في ذروته.

أجهش "طارق" في البكاء بعد لحظات من المقاومة.. كان يحاول أن يمسك دموعه.. أن يبدو متماسكًا، لكن شيئًا ما داخله دفعه لأن يترك نفسه على طبيعتها، ولا يمارس عليها نوعًا من الوصاية.. إنه يريد الآن أن يبكي.. أن يبوح.. أن يتخفَّف من عبءٍ كبيرٍ نام فوق قلبه لسنواتٍ طويلةٍ لم يستطع أن يتكلم عنه مع أحد.. لم يجرؤ.

كان اللقاء هذه المرة في بيت "طارق"، وكانت "ليلى" في رحلة مع صديقتها في "شرم الشيخ".. اختار الصديقان الجديدان أن يبتعدا بأسرارهما الدفينة عن الأجواء الرسمية في بيت "شهد"، وقررا أن تكون لقاءاتهما منفردةً، بعيدةً عن أي تداخلات أو تحفظات أو رسميات.

في اللقاء الأخير، وعندما ظهرت بوادر انهيار السور بينهما، بدت "شهد" في صورة بطلة أسطورية إغريقية معجونة بالألم، تتوق إلى لحظة الخلاص.. التطهر.. الاعتراف الذي يخلِّص الإنسان من ذنوبه.

كأنها بهذا الاعتراف المدوي قد نكأت جُرحًا قديمًا غائرًا في أعماق "طارق".. كأنها استدعت الذنوبَ الغارقةَ في مياه الماضي.. جذبتها من الأعماق لتطفو وتظهر في خلايا إحساسه وضميره بكل بشاعتها.

لذلك تجرَّأ وطلب من "شهد" أن يكون اللقاء الثاني عنده في البيت.. ولهذا وافقت "شهد" على اقتراحه دون تردد، فقد أحست بطوفان من الحكايا والشخوص يتحرَّك داخله، ولمحت في عينيه ذلك الخوف المغموس في القلق الذي يغلِّف حيرة الإنسان وتردده قبل أن يفتح الباب المغلق على سرٍّ دفينٍ.

وصلت "شهد" في السابعة مساءً إلى بيت "طارق" بالدقي، حيث يسكن في الدور العاشر في شقة تتسم بالذوق والبساطة، وينطق الفن على جدرانها وأركانها وزواياها.

وقفت "شهد" متأملةً لوحات "محمود سعيد" و"بيكار" و"صبري راغب" مُعَلَّقةً على الجدران، بينما تناهى إلى سمعها الموسيقى الخفيفة لأغنيات الستينيات الشهيرة.. لمحت أحواض الزرع وأوراقه الخضراء تمنح المكان دفئًا وإنسانية وحياة.

- الله.. بيتك جميل قوي يا "طارق"..

ابتسم بسعادة.. كانت "شهد" لاتزال واقفةً تتنقل عيناها من ركن إلى آخر.. تقترب من اللوحات الزيتية وتقرأ توقيعات رساميها.. يبهرها الركن الحميم - كما يسميه "طارق" - إنه الركن الذي يضم مكتبةً خشبيةً أنيقةً من الخشب الزان بقشرة.. وحليات ومكتب صغير أنيق أيضًا، أمامه أريكة وثيرة يجمع فرشها بين اللونين الأزرق السماوي والبيج الفاتح، وطاولة مستطيلة ضخمة من الخشب الأرو مرسوم عليها رسومات يدوية دقيقة وبديعة، فوقها عدد كبير من القطع الفضية.. أطباق.. طفايات.. شمعدان.. قدرة فول.

وفي الخلف بار صغير به زجاجات الويسكي والنبيذ والفودكا، وأكواب مختلفة الأشكال والأحجام تناسب كلَّ مشروبٍ.

وضع "طارق" مجموعة من المَزَّات والمقبلات على الطاولة، وزجاجة النبيذ الأحمر الذي تحبه "شهد" والذي يساعدها في فك الأقفال الموصدة في خزانة أسرارها، وكأسين.

خلق هذا الجو الأثير بينهما إحساسًا عاليًا بالاسترخاء والراحة.. شعر "طارق" أنه يستعيد نفسه بعد سنواتٍ طوالٍ من الغربة عن الوطن، والغربة الأصعب والأشق.. الغربة عن الذات.. كان في كل لقاء مع "شهد" يشعر أنه يقترب أكثر من نفسه.. يستعيدها ويحتضنها بعد طولِ فراقٍ.

قالت "شهد":

- والآن.. جاء دورك يا صديقي العزيز.. سوف تجلس أنت اليوم على كرسي الاعتراف لتحكي، وسوف أستمع أنا بكل اهتمامٍ وتركيزٍ كما فعلت معي يا "طارق".

ابتسم "طارق" وهو يكمل الرشفات الأخيرة من كأس النبيذ وقال:

- عندما أشعر أني جاهز سأتكلم من نفسي .. الليلة طويلة وزجاجة النبيذ لم تنتهِ بعد.. دعينا نشرب ونستمع إلى الموسيقى وصدقيني.. سأتكلم.. لكن عندما أتشجَّع.

حدَّقت "شهد" في عينيْ "طارق" في نظرةٍ أشبه بالعتابِ الصامتِ، وبادلها بنظرةٍ أخرى نافذةٍ وطويلةٍ تقول: أمهليني.. وقدِّري ضعفي الإنساني وقلقي.. امنحيني بعضًا من الوقت أستجمع فيه نفسي، وأحفِّز خلاله شجاعتي، فالاعتراف يا عزيزتي بأمر جلل كالذي سأدلي به أمامك الآن يحتاج إلى شجاعةٍ وأنا الآن أستحضرها وأستنفرها.. صحيح أنكِ استأمنتيني على أدق وأخطر أسرارك، لكنكِ أشجع مني.. دعيني أعترف بذلك.. دعيني أرفع القبعة لكِ ولنساء مثلك عرفتهن في حياتي يملكن الشجاعة في التعبير عن أنفسهن إذا ما قررن ذلك، فالمرأة القوية تتحدى الظروف، وتكسر كل القواعد إذا ما أرادت حقًّا، وإذا كانت لديها قناعة داخلية بما تفعل أو تريد.

مع نهاية الرشفة الأخيرة من كأس النبيذ، بدأ "طارق" يتكلم، والشجن يلوِّن كلماته:

- أنا السبب في عودة "جيسيكا" إلى الإدمان وتشبثها به كأنه نوع من الانتحار أو الخلاص.

غاصت عينا "شهد" في نظرةٍ نافذةٍ اخترقت أعماق "طارق" بعدما نزلت كلماته عليها كالسياط.. لا.. لا يمكن أن يكون هذا الرجل شيطانًا.. كما أنه ليس ملاكًا.. إنه بشر مثلي يخطئ ويصيب.. يحب ويكره.. يفرح ويحزن، لكنه لا يُكمن الشر ولا يمارسه بقصدٍ تجاه أحد، فما بالك إذا كان هذا أقرب الناس إليه.. زوجته وأم ابنته الوحيدة "ليلى"؟

ظلت "شهد" صامتةً.. مطلقةً نظرةً واحدةً ثابتةً نحو "طارق" وكأنها تدعوه إلى مزيدٍ من التفاصيل للإدلاء بكامل الاعتراف.. لم ترغب في مقاطعته، فقد استجمع شجاعته أخيرًا وبدأ الكلام.

واصل "طارق" البوح:

- كنت أعدُّ العشاء لأتناوله أنا و"ليلى" في ذلك اليوم المشئوم منذ حوالي أربع سنوات.. نامت "ليلى" مبكرًا حتى تستيقظ في السادسة صباحًا لتذهب إلى مدرستها.. كانت "جيسيكا" مسافرةً في رحلة عمل إلى باريس، وكنت أنا أتولى أمر "ليلى" في غيابها ..وهذا أبسط شيء يمكن أن أقدمه لها، فهي مثال الزوجة والأم المحبة التي تعطي - بسخاءٍ وبلا حدودٍ - حبًّا غير مشروط.

وأكمل:

- نامت "ليلى" فاتجهت إلى ركني الحميم الذي يلازمني في أي بيت أسكنه حيث أحتفظ بمكتبي ومكتبتي وبار صغير مع أسطوانات الموسيقى التي تكمل الجو الأثير، وبينما كنت منتشيًا رائق المزاج، سمعت صوت الـ"إنتركوم" فنهضت لأرد على زائري المجهول.. كانت "مارجريت" الشقيقة الصغرى لـ"جيسيكا"، وهي فتاة صغيرة كانت في السابعة عشرة في ذلك الوقت، وكانت "جيسيكا" تحبها حبًّا جمًّا وتعتبرها ابنتها الكبرى، لكن ذلك لم يمنع "مارجريت" من محاولة إغوائي وجذب اهتمامي ومداعبة غرائزي.

كانت تتعمد أن ترتدي ملابس صارخة تظهر مفاتنها، وتحرِّك شهوة أي رجل يشاهدها، وكانت أختها تنصحها كثيرًا بعدم ارتداء تلك الملابس لأنها قد تتسبب لها في حوادث عديدة من تلك التي نسمع عنها كل يوم، من اغتصاب إلى سرقة إلى قتل، وأحيانًا ما تجتمع الجرائم الثلاث في وليمة الشيطان.

لكن شقاوة "مارجريت" وشيطانيتها كانت أقوى من نصائح أختها.. كانت ترغب في تجربة كل شيء وأي شيء، وتفتح ذراعيها بجرأةٍ تصل إلى حدِّ الوقاحة والسفالة لاحتضان كل ملذات الحياة ونزواتها.

لذلك لم يمنعها من إغوائي أَنَا زوج أختها الكبرى، التي تغدق عليها طيبةً وحبًّا وحنانًا.. ربما رأت فيَّ ملامح الرجل الشرقي الذي يفتن الشابات الأوروبيات.. ربما أحبت أن تعاشر رجلًا أكبر منها.. مجربًا.. محترفًا.. يجيد ممارسة الحب بفنٍّ واقتدارٍ.

نهض "طارق" من فوق مقعده واتجه إلى زجاجة النبيذ الثانية.. ملأ كأسه ثم أكمل كأس "شهد" التي كانت لا تزال ملآنة.. عاد ليجلس على الـ"فوتوى" ويكمل ما بدأ.. كانت عيناه قد امتلأت بالدموع، وكان يحاول إخفاءها دون جدوى.. انفلتت وانسابت على وجهه، وقال:

- في تلك الليلة جاءت "مارجريت" سكرانة في حالةٍ غير طبيعية من المرح الزائد، ترتدي جونلة طولها شبر، وبلوزة ضيِّقة عارية الظهر، قصيرة جدًّا تكشف نصف بطنها، ورسمت فوق سرتها وشمًا جعلها أكثر إثارة كما وضعت حبة لؤلؤ فوقها.. أدهشني منظرها، بدت كأنها واحدة من بنات الغجر.

كنت قد شربت كثيرًا قبل أن تصل "مارجريت"، وعندما جاءت شربنا ثانية معًا بعد أن طلبت بيتزا لتأكل، كأنها قد خطَّطت أن تقضي ليلتها معي.. كانت تعلم أن أختها مسافرة وأنني في البيت وحدي مع "ليلى".

نمت مع "مارجريت".. غُصْنا في اللذة التي لم أذقها أبدًا مع "جيسيكا".. كانت "مارجريت" شعلةً متقدةً تفجِّر الرجولة، وتفتح مسام الشهوة، وتخلق الشبق والنهم للجنس والنشوة معًا، وكانت هذه الليلة هي البداية.. بداية علاقة جنسية شرهة مع "مارجريت" أخت جيسيكا.

سوف تسألين: أين كان ضميري في ذلك الوقت؟ فأقول لك: ضميري أعطيته إجازةً مفتوحةً ، فقد كنتُ في ذلك الوقت أحتاج إلى شيء يكسر الرتابة في حياتي.. كنتُ أمر بفترةِ ركودٍ فكريٍّ، وكنتُ أحتاج شيئًا يُحَرِّكُني.. يزعزع الثبات في حياتي.. يلهمني فكرةٍ لأكتب شيئًا جديدًا.. ربما كنتُ في

حاجة إلى الجنس الحقيقي المشبع الذي يصهرنا داخل بوتقته، فنخرج منه أكثر لمعانًا وتوهجًا.

تحركت "شهد" في مكانها استعدادًا لسؤال ألح عليها.. قالت بنصف ابتسامة:

- وكم استمرت تلك العلاقة المشتعلة؟

- حوالي سنة.

- وكيف انتهت؟

- انتهت بمأساة لم أخرج منها حتى الآن..

عرفت "شـهد" من "طارق" أن "جيسيكا" اكتشفت بنفسهـا علاقة زوجها بأختها.. رأتهما معًا في سرير "مارجريت" عندما ذهبت إلى بيتها لتطمئن عليها.. كان تليفونها المحمول مغلقًا، فانتابها القلق على أختها الصغرى.. اتجهت إلى منزلها واندهشت عندما رأت سيارة زوجها أسفل المنزل.. ازداد قلقها.. هل حدث مكروه لـ"مارجريت" فاتصلت بـ"طارق" لينقذها؟ ولماذا لم تتصل بي أنا؟

صعدت "جيسيكا" إلى شقة "مارجريت".. فتحت لها الباب مذهولةً.. اعتقدت أن "جيسيكا" عرفت كل شيء عن علاقتها بزوجها "طارق" وجاءت لتضبطهما معًا، وكذلك اعتقد "طارق".. توسلا إليها أن تغفر لهما تلك الجريمة البشعة في حقها.. أجهشت "مارجريت" بالبكاء والصراخ.

- أنا مجرمة.. أنا شيطانة.. أنا لا أستحق أن أكون أختك يا "جيسيكا".

لف الذهول "جيسيكا"، فلم تكن تتخيل أبدًا أن ترى ما رأت، وأن تفاجأ بهذه الخيانة المزدوجة من أقرب شخصيتين إليها.. أخرستها الصدمة.. نزلت مسرعة دون كلمة.. كان الموقف أكبر من الكلمات.

ومنذ ذلك اليوم عادت "جيسيكا" بشراهة إلى الإدمان بعدما نجحت في الشفاء منه.. كانت تتجه تلقائيًا نحو الانتحار البطيء دون أن تفكر أو تحسب

حسابًا لشيءٍ، فقد شلت الصدمة تفكيرها، وعطَّلت مشاعرها حتى تجاه ابنتها أغلى الناس عندها.

أما "طارق" فقد وقع في بئر الندم والإحساس بالذنب ولم يخرج منه حتى اليوم.. حاول أن يفتح الموضوع معها أكثر من مرة أملًا في أن يشرح لها كيف مهدت الظروف لوقوعه في هذه السقطة الأخلاقية الرهيبة.. حاول أن يعبِّر لها عن مدى احتقاره لنفسه لأنه استسلم لتلك النزوة الدنيئة التي داست على القيم والمبادئ دفعةً واحدةً.. كان يريد أن يقول لها أشياءً كثيرة لكنها منعته، وطلبت منه عدم الحديث في ذلك الموضوع نهائيًّا.. أذعن "طارق" لطلبها ؛ فقد كان غارقًا في الإحساس بالخجل منها، والندم على جرمه الفادح.

ورغم كل شيء لم تطلب "جيسيكا" الطلاق أو الانفصال.. حملت الصدمة في قلبها وأكملت حياتها مع "طارق" و"ليلى".. لم تعرف "ليلى" بما حدث، فقد كانت "جيسيكا" حريصة على ذلك، لكن "ليلى" كانت تحس أن تيارًا باردًا قد سرى في جسد تلك العلاقة التي تجمع والديها، وكان هناك سؤال بلا جواب يلح عليها: ماذا حدث بينهما ؟ ما السر في هذا التحول الغريب؟ إنهما يبدوان في الظاهر وأمام الغرباء أو حتى الأصدقاء كما هما، زوجان متحابان يصنعان مع ابنتهما الوحيدة أسرةً هادئةً، لكنهما بالنسبة لي، أنا الضلع الثالث المكمل لمثلث علاقتهما لم يعودا كما كانا، ومن المؤكد أن أمرًا جللًا قد حدث بينهما وأخفياه عني.. أرى في عينيْ أمي أفقًا من الذهول، وأرى في عينيْ أبي بحورًا من الألم.. ماذا حدث.. ولماذا لا يشركانني في مشكلاتهما.. لقد كبرت الآن وأصبحتُ أدرك وأقدر، فلماذا لا يفهمان ذلك ويستوعبانه.

في عقل "ليلى" تعمل آلات التفكير الغربي الذي يلجأ إلى تفسير الأمور بأسلوب علمي، يحترم منطق الأشياء، وفي قلبها تتدفق مشاعر الشرق وعاطفيته، لأنها خلطة مدهشة.. جميلة.. جذابة.. لكنها في الوقت ذاته خلطة محيرة، مربكة أحيانًا في التعامل معها.. فبأي الأسلوبين يمكن لأي إنسان أن يقترب منها أو يفهمها.. هل هي "ليلى" المصرية أم "ليلى" الأوروبية؟

إنها المشكلة التي تواجهها "ليلى" في كل مكان.. في لندن وسط زميلاتها وزملائها الذين يندهشون - مثلًا - لأنها لا تزال تعيش مع أهلها في البيت نفسه، رغم بلوغها السابعة عشرة، ولأن ليس لديها "بوي فريند" تخرج معه وتمارس معه الحب.. لأنها لا تشرب البيرة معهم عندما يلتقون في عطلات نهاية الأسبوع.

وفي القاهرة التي تحبها كثيرًا، تشعر في بعض الأحيان أنها غريبة أيضًا، فالفتيات اللاتي في مثل سنها معظمهن يخرجن إلى الجامعات أو النزهات محجبات أو منتقبات، وبعضهن يرتدين ملابس تشبه ملابسها.. تلك التي تسيطر عليها اللمسة الأوروبية والموضة العالمية، أما ما تندهش له حقًّا فهن تلك الفتيات اللاتي يرتدين الملابس الصارخة الضيقة التي تكاد تتمزَّق على أجسادهن، أو القصيرة جدًّا بصورة مبالغ فيها، صحيح أن هذا موجود أيضًا في لندن وأوروبا، لكن أن تراه في مصر كان شيئًا لافتًا وغريبًا.

أهل والدها يحبونها.. هذا ما تحسه أثناء وجودها في القاهرة، لكنهم يعاملونها باحترامٍ زائدٍ وتكلُّفٍ، فهي في نظرهم فتاة أجنبية تعيش في دولة متقدمة.. نشأت في مناخٍ حضاريٍّ، لذلك فهي بالنسبة إليهم غريبة، أو هكذا

تشعر رغم هالة الترحيب والبشاشة التي يستقبلونها بها، وولائم الغذاء والعشاء التي يتبارون في دعوتها إليها.

كذلك تشعر "ليلى" في قرارة نفسها أنها ليست منهم إلا بالاسم.. اسم والدها الذي يشترك مع أسمائهم في خانتي الأب والأم في شهادة الميلاد، أما الفكر والثقافة ونمط الحياة فهي بعيدة كل البعد، وكذلك "طارق" أبوها الذي ينتمي إلى هذه العائلة انتماءً طبيعيًّا يعود إلى رابطة الدم وصلة الرحم، لكنه بفكره وأسلوب حياته يبتعد بآلاف الأميال عن تلك الأسرة التي يحبها كثيرًا ويحن إليها في الغربة، وتدمع عيناه في كثير من الأوقات إذا ما تذكرهم أو استدعى مشاهد من طفولته وشبابه تجمع بينه وبينهم.. حيث الألفة، والحب والدفء.

أن يتحرَّر الإنسان من سر جثم على صدره طويلًا، فكأنه ألقى بحملٍ ثقيلٍ طالما أنهك قواه النفسية والبدنية.

هذا ما شعر به "طارق" وما شعرت به "شهد" بعدما تعرى كلاهما أمام الآخر.. شيء عجيب أشبه بالانصهار الكامل.. تهاوت الحواجز وبقي شيء واحد واضح ومؤكد.. أنهما ومنذ أن تكاشفا بأدق وأخطر أسرارهما توحدت مشاعرهما، وصارت كمياه النهر تجري في هدوء وتناغم.

تعددت لقاءاتهما وتعمقت.. نسيا في طوفان المشاعر التي لم يجربها أحدهما من قبل أنهما زوجان، وأن كل طرف منهما مسئول عن أسرة وأولاد.

في لحظات الحب الحقيقية نولد من جديد.. هذا ما قالته عيناها وما أكدته نظراته المفعمة باللهفة والتعلُّق والشغف.

سألها:

- ماذا نفعل؟

قالت:

- لا أدري .. كل ما أعرفه الآن هو أنَّني أولد من جديد .. كنتُ قبلك يا "طارق" مشرفةً على الموت أو الغرق في بحر الزمن، ثم ظهرت في حياتي فانفتحت السماء لترسل زرقتها وصفاءها إلى فجر أيامي.. نعم

فعلتَ ذلك.. جعلتني أكتشف نفسي وأتعرفها من جديد.. جعلتني أحرِّر نفسي من نفسي وأخرج من قمقم الذاكرة.. كنت أتشبث بصوري وصور كل الذين عرفتهم وأحببتهم كأنني أتعلق بقارب النجاة الوحيد.. كنت ألتمس في تلك الذكريات بعض الدفء المفقود في أيامي.

قال:

- وأنتِ يا "شهد".. هل تعرفين ماذا فعلتِ بي؟ لقد طهّرتني.. أدخلتني المحرقة لتنصهر خطاياي وخرجت منها بلا شوائب.. بلا خطيئة، لكن.....

قالت:

- لا تقل لكن.. دعنا الآن من التفكير.. لا تفسد هذه اللحظة.. دعنا نستمتع بالتحرُّر والعتق من سجن الذاكرة.. دعنا نعش هذه اللحظة، ولنَمُتْ بعدها.

* * *

أن تعيش الحياة من جديد.. أن تبدأ من الصفر كأنك ترى الدنيا للمرة الأولى بعينين مختلفتين وإحساس آخر.. هذا ما حدث لـ"شهد".. نقطة تحول حقيقية جذبتها من سكون اليأس إلى صوت الحياة.

هل يفجِّر الحب طاقاتنا المخبوءة؟ هل يحقن أوردتنا بأكسير الشباب والأمل؟ هل يمكن أن يغيِّر حياتنا مائة وثمانين درجة؟

لم تعد "شهد" تشعر أن الدنيا خانتها وَخَلَت بها.. أو تنظر في المرآة طويلًا وتفتش في الخطوط والتجاعيد التي طالت وجهها الجميل.. لم تعد تحمل عبء سنين مضت تنوء بثقلها.

صارت أخف من عصفورةٍ.. مقبلةً على الحياة.. نشيطةً مبتهجةً.. تنتظر لقاءاتها بـ"طارق" بكل شوقٍ وترقبٍ.

أصبحت لقاءاتهما يومية.. تواعدا أن تظلَّ علاقتهما طاهرةً إلى أن يأذن الله، لكن هذا الوعد لم يمنعهما من الارتماء في أحضان الدفء الذي يمنحه كل منهما للآخر.

كانت في حاجة إلى الحنان لا إلى الجنس وكذلك هو، يشعل تلامسهما شرارة الروح لا الجسد ويروي ظمأهما للحب.. للاقتراب الحميم الذي يفتح مسام القلب والروح معًا.

تبكي "شهد" كثيرًا على صدره، كأنها تفرغ آلام السنين، ويبكي كذلك وهو مستلقٍ على الأريكة ورأسه على حجرها، بينما يتذكر أيام الغربة ولوعة قلبه وعذاب ضميره.

تروي له كيف عاشت عاميها الأخيرين جسدًا بلا روح، وهي ترى نظرات "أحمد" تخترقها في قسوة.. أحيانًا تقرأ مشاعر شفقة في عينيه، وأحيانًا تحس النفور والصد، وأحيانًا تستقبل نظراتٍ باردةً متبلدةً لا تعني شيئًا.

- كان يعايرني بسني رغم أنه يكبرني بخمس سنوات، يقول لي: دي أعراض سن اليأس.. اذهبي إلى دكتور يكتب لكِ أدوية تساعدك في المرحلة دي..

انتزع مني إحساسي كامرأة ليحتلني شعور أنني أصبحت مثل الأرض الخواء، وكان يتفنَّن في الاهتمام بنفسه.. يتأنق ويتعطَّر كل ليلة ويخرج للقاء أصدقائه.. أو صديقاته.. الله أعلم.

- نسي أنني إنسانة من لحم ودم.. أحب وأكره.. أفرح وأحزن.. أحتاج إلى الحب مثل أي كائن حي.

وكان "طارق" يتكلم عن حياته التعسة مع "جيسيكا"، وكيف تحولت مشاعره تجاهها من الحب إلى الشفقة، وهو يراها تدمِّر نفسها بنفسها، وتحاول في هدوء أن تبتعد عن حياته وحياة "ليلى".

اجترار الألم.. إطلاقه من عمق الأعماق.. كان أشبه بزلزال عنيف كسر القشرة السطحية السميكة التي جثمت طويلًا فوق مشاعرهما.. تفجَّر البركان وأخرج ما بجوفه من ألمٍ ومرارةٍ.. ندمٍ وعذابٍ.. هروبٍ وخضوعٍ.. استسلامٍ ويأسٍ.

ومنذ ذلك اليوم توحدت مشاعرهما فيما يشبه العناق، وتواعدت الأعين على إبقاء تلك اللحظة الإنسانية الفريدة بقدر ما يمنحهما الله من عُمْر.

يرن جرس "الموبايل" أمام "طارق" على المكتب .. ينظر إلى الشاشة فيقرأ اسم "أحمد خيري".. تتسارع دقات قلبه ويرتبك.. قلق لا إرادي يعتريه لمجرد رؤية اسم صديقه الحميم على شاشة "الموبايل".

يضغط أخيرًا على زر التليفون مجيبًا صديقه القديم:

- آلو.. أهلًا يا "أحمد" ..

بسخرية وعتاب:

- والله كنت فاكرك سافرت، إيه يا سيدي.. ما أسكت الله لك حِسًّا.

تتداخل نبرات صوت "طارق" وتضطرب.. يرد بكلمات لاهثة:

- لا.. أبدًا يا "أحمد".. أنا كنت مشغولًا جدًّا في البحث.. الوقت سرقني.. أنا آسف يا "أحمد".. أرجو أنك تقدِّر ظروفي.. لكن كل ده مش هيمنعني إني أشوفك قبل ما أسافر طبعًا.

بلهجة ساخرة متهكمة يقول "أحمد" :

- بحث الذاكرة إياه هو اللي خدك مننا.. والله يا "طارق" انت و"شهد" عاوزين مصحة.. والله يا ابني.. فيه حد ينسى الحاضر ويفكر في الماضي والذاكرة؟ إيييه.. ربنا يهديكم.

ويتحول "أحمد" للنبرة الجادة قائلًا:

- المهم يا "طارق".. أنا عاوز أقابلك ضروري جدًّا.. في أقرب وقت.. فيه موضوع مهم عاوز أكلمك فيه.

"طارق" بتلعثم:

- إيه رأيك نتعشى مع بعض بكرة كلنا في "الباشا"؟

"أحمد" بنبرةٍ حاسمةٍ:

- لا يا "طارق".. أنا عاوزك لوحدك.. مش عاوز حد معانا المرة دي بالذات.

يزداد ارتباك "طارق" وتتسارع دقات قلبه ويقول:

- بكرة الساعة واحدة بعد الضهر في "شبرد".. يناسبك الميعاد ده؟

- يناسبني جدًّا.. إلى اللقاء يا لورد.

* * *

في الطريق إلى "شبرد"، تسابقت الأفكار السوداء لتقفز في رأس "طارق"، وتسلبه القدرة على صدها ومقاومتها.

هل اكتشف "أحمد" أسرار وخبايا علاقته بـ"شهد"؟ هل طلب أن يلتقيا منفرديْن حتى يواجهه بتلك القنبلة المدوية، وينتظر رد فعله واستقباله لتلك المفاجأة أو المصيبة؟

وإذا كان هذا هو الأمر المهم الذي طلب "أحمد" أن يكون لقاؤهما سريًّا بسببه، فإلامَ يهدف تحديدًا؟ هل يريد أن يعنفه ويحاسبه ويلقي في وجهه تهمة

الخيانة العظمى لصداقة العمر كله؟ أم أنه سوف يناور ويراوغ حتى يحصل على اعتراف كامل منه بأنه على علاقة سرية بزوجته "شهد" ويكشف له مدى هذه العلاقة، وإلى أي حد وصلت في اختراق الحواجز والأخلاق والضمير؟

أما "أحمد" فكان مشغولًا أيضًا بالتفكير في هذا اللقاء.. قلقًا للغاية.. متوترًا.. أسئلة كثيرة تتزاحم في رأسه: كيف سيستقبل "طارق" المفاجأة التي سوف ألقيها في وجهه كقنبلة؟ هل سيكون متفهمًا مقدرًا لمشاعري محترمًا لقراري؟ أم أنه - كعادته - سوف يجادل ويبرر ويحاور ويدافع ويبحث عن أسباب؟

- مهما كان رد فعله فلا بد من المواجهة.. لا أستطيع أن أبقي هذا الأمر سرًّا أكثر من ذلك.. لا بد أن يعرف "طارق".. لا بد أن أزيح هذا الحمل الثقيل عن قلبي.

* * *

وضع الـ"متر دوتيل" فنجاني القهوة أمام "طارق" و"أحمد".. سادت لحظات من الصمت ، بعدها بدأ "أحمد" الحديث مقتحمًا لحظات التوتر والترقب:

- الموضوع يا "طارق" باختصار يخص "شهد"، وكان لازم أكلمك وجهًا لوجه.. وطلبت نتقابل لوحدنا علشان أصارحك بكل حاجة.

دق قلب "طارق" دقات متسارعةً.. ارتفع مستوى التوتر والقلق إلى أعلى نقطة.. لم يتكلم.. صمت تمامًا، وهو يحدق في عينيْ "أحمد"، ويحاول اختراق ما وراءهما.

استطرد "أحمد" قائلًا:

- طبعًا انت عارف إن العلاقة بيني وبين "شهد" صارت علاقة أخوية أكثر من أي شيء.

بلع "طارق" ريقه وهزَّ رأسه مؤيدًا كلام "أحمد" الذي أكمل كلامه:

- وانت عارف يا "طارق" إن "شهد" غالية جدًّا عليَّ.. دي عِشْرة عُمر، وأم "سارة" و"سيف".. إنسانة ملهاش زي.

قاطعه "طارق":

- طيب فين المشكلة؟

- المشكلة إني رجل.. لي رغبات لازم أشبعها، والرغبات دي ماتت مع "شهد".

- والحل؟

- الحل إني أشبعها مع امرأةٍ أخرى.. امرأة تحرِّك رجولتي وتحفِّزها.

- تقصد "فاتن"؟

- أيوه "فاتن".. "فاتن" يا "طارق" هي "الموديل" بتاعي.. كأنها اتخلقت علشاني.. كيمياء الأنثى جواها مظبوطة على كيمياء رجولتي.. يا أخي فيه أسرار في الإنسان مش ممكن نوصل لحل شفرتها أبدًا.. "شهد" و"فاتن" مثلًا.. هم الاتنين نسوان، واحدة تموِّت الرغبة عندك .. وواحدة تشعلها كالجمر.

- وإيه الموضوع اللي عاوز تكلمني فيه؟ إيه اللي في دماغك يا "أحمد"؟

يتحرَّك "أحمد" من مقعده منفسًا عن القلق الذي ينتاب الإنسان قبل الإفصاح عن سر أو شيء يتوقع أن يُحدث رد فعل صادمًا للآخر، ثم يبدأ الكلام:

- أنا بفكر أتجوز "فاتن" يا "طارق".. نفسي أعيش بوجه واحد.. نفسي أرضي ربنا وأبطل أنام معاها في الحرام، العملية قربت والزمن بيجري بينا، وكلها كام سنة ونقابل ربنا.. عاوز أقابله وأنا نضيف.. عاوز أغسل النجاسة اللي عايش فيها طول عمري يا "طارق".. انت عارف إني بأصلي وأصوم.. حجيت سبع مرات وكل سنة بعمل عُمرة، يعني مش ناقصني غير الحتة دي.. مش عاوز أزني بعد كده يا "طارق".

ينظر في عينيْ صديقه الحميم منتظرًا رد فعله.. يصمت "طارق" بعد أن أنصت جيدًا لكل كلمة قالها "أحمد".. وكل تعبير طفا على وجهه، وهو يبوح بما ينوي فعله.. فهل كان صمت "طارق" فرصة لأخذ نَفَسٍ عميقٍ بعدما تأكد الآن أن الأمر الجلل الذي طلب "أحمد" مقابلته بشأنه لا يتعلق بعلاقته بـ"شهد"؟ أم كان محاولة للم أشتات نفسه بعدما اطمأن الآن أنه لا يواجه اتهامًا خطيرًا بالخيانة العظمى من صديق عمره؟

هل كان يرغب في لحظات من الهدوء والتفكير والتأمُّل لهذا الخبر الغريب، الذي ألقاه "أحمد" في وجهه مثل حجر جارح؟

أفاق "طارق" من صمته وتأمله على صوت "أحمد":

- إيه يا أخي.. مالك ساكت ليه؟ هو أنا جاي أكلم نفسي؟ رد يا "طارق".. إيه رأيك في الموضوع ده؟ انت شايف إيه؟

- شايف إنك لازم تقول لـ"شهد".. من حقها بعد العمر ده كله إنها تقرر هل تقبل الوضع ده أو ترفضه.

- لكن أنا هتجوز "فاتن" في السر يا "طارق".. محدش هيعرف، وأنا بطلب منك تكون شاهد على جوازنا.. انت وعم "أحمد" السوَّاق بتاعي وكاتم أسراري.

بحدة وحسم يرد "طارق":

- أنا مش ممكن أشترك في عملية غدر وخداع يا "أحمد".. من حق "شهد" إنها تعرف، ومن حقها تقرر ازاي تعيش حياتها.. يا أخي لازم تعترف إنها إنسانة على الأقل.. إنسانة لها مشاعر.. مش حجر.

لاحظ "أحمد" انفعال "طارق" وتأثره الواضح بمحنة "شهد".. سادت ثواني من الصمت بينهما اخترقه صوت "أحمد" المليء بالشجن:

- إذا كنت شايف كده يبقى لازم انت اللي تكلمها وتفتح لها الموضوع بطريقتك.. أنا.. أنا...

ويختنق صوته بالبكاء المكتوم، بينما تلمع في عينيه دموع يمسكها بصعوبة، لكنها تنفلت رغمًا عنه في لحظة مفعمة بالأسى:

- أنا بصراحة يا "طارق" مش هقدر أواجه "شهد".. هضعف ويمكن أركع قدامها وأبوس رجليها.

- والمطلوب مني يا "أحمد"؟

- أرجوك.. كلمها انت.. هي مقتنعة بك.. فهمها إنها غالية وستظل كذلك للأبد في حياتي.. قل لها إني أتمنى أن تبقى معي وبيننا أولادنا، وأن ترتفع فوق كل شيء.. بقاؤها وسطنا سيكمل فرحتي، لكن إذا أصرَّت على الطلاق - وهذا ما أعتقد أنها ستختاره - فقل لها إنني سأشتري لها شقة في المكان الذي تختاره، وهيكون لها مصروف شهري، وأي طلبات لها مجابة.

اخترقت نظرات "طارق" "أحمد" دون أن ينبس بكلمة.. استأذنه في الانصراف ووعده بأن يفعل ما طلبه منه.. سيواجه هو "شهد".. سيقول لها إن زوجها الدكتور "أحمد" سوف يتزوج من امرأةٍ أخرى بعد أكثر من ربع قرن زواج وحب وعِشْرة وأولاد، وسوف يخبرها بأن الزوج النبيل مستعد لتلبية كل طلباتها امتنانًا لإنسانةٍ فعلت الكثير من أجله.. إنسانة يحمل لها كل الحب والاحترام حتى تلك اللحظة الحرجة في مسيرة علاقتهما.

الراقصةُ الإسبانيةُ
تقولُ بأصابعها كلَّ شيءٍ..
والرقصُ الإسبانيُّ هو الرقصُ الوحيدُ الذي يستحيل فيه الإصبعُ إلى فمٍ
النداءُ الساخنُ..
والمواعيدُ العطشى
والرضا والغضبُ
والشهوةُ والتمنِّي
كلُّ هذا يُقال
بشهقةِ إصبعٍ..
بنقرةِ إصبعٍ

* * *

وسيمفونية الأصابع..
في أوج مدها وجزرها
والمطرُ الأسود..
المتساقطُ من فتحاتِ العيونِ الواسعةِ
شيءٌ لا يعرفُهُ تاريخُ المطر..
أنا في محلي
فيا مطر الأعين السود..
سألتك.. لا تنقطع.

غرناطة 10 – 8 – 1955

جلس "طارق" يقرأ سطور قصيدة نزار قباني المكتوبة بخط يد جميل ومنمنم في الكراسة الزرقاء.. هكذا أسمتها "شهد".. إنها الكراسة التي تدون على صفحاتها وبخط يدها فقرات تعجبها في رواية تقرؤها، أو مقاطعَ من قصيدةٍ لامست قلبها، أو جملةً مأثورةً أو حكمةً عششت في ذاكرتها.

كانت "شهد" في غرفتها تستعد لاستقباله بعدما أبلغتها خادمتها "نادية" أنه في الـ"ليفينج روم".. استغل "طارق" تلك الدقائق في تفقد أحوال "شهد" من خلال كراستها الزرقاء، وكتبها المرصوصة على مكتبها الصغير في غرفة المعيشة، يدفعه فضوله دائمًا لأن يعرف ما الذي يشغلها الآن، وفي أي ركنٍ من أركان الذاكرة ترسو سفينتها.

كانت "شهد" قد اعتادت رفقة الأقلام والورق وكتبها في الفترة الأخيرة، تهوى تدوين كل شيء عن أي شيء يستوقفها أو يحرِّك داخلها شيئًا أو ذكرى ما.

كانت لعبة الزمن لا تزال تجذبها، فتلك القصيدة الجميلة لنزار قباني اختارتها من كتابه "الشعر قنديل أخضر"، وكتبت تعقيبًا من عندها:

هذه القصيدة كتبها نزار قباني قبل أن أولد.. ولدت بعدها بعدة أشهر، لكنني عدت وعشتها في برشلونة بنفس إحساسه وأنا في الأربعين من

عمري.. سافرت بقلبٍ حزينٍ أجتر ذكرى حب قديم.. حب اخترقني في الأعماق ثم عبرني إلى الأفق اللانهائي.

* * *

ظهرت "شهد" مشرقةً في كامل حيويتها وأناقتها، فلقاؤها بـ"طارق" هو دائمًا المفجر لطاقة الحب داخلها.. رأت الكراسة الزرقاء في يديه يقرأ صفحاتها باستغراقٍ.. لم يكن أحد قبل "طارق" مسموحًا له بأن يقرأ في تلك الكراسة أو حتى أن يراها عن بُعد، فقد كانت "شهد" تحتفظ بها وسط شكمجيتها الخاصة التي تضم أسرارها، لكنها و"طارق" الآن أصبحا كيانًا واحدًا مقسومًا على اثنين.. توءمة إنسانية فريدة تتجاوز مشاعر الحب بين رجل وامرأة.

جلست أمامه بابتسامةٍ ودود تسأله:

- ما الذي استوقفك في كراستي يا "طارق"؟

- فتنتني الراقصة الإسبانية..

بانفعالٍ وحماسٍ قالت "شهد":

- آه من تلك القصيدة.. كتبها نزار قباني بإحساس عالٍ جدًّا.. عبَّر عن الرقص الإسباني "الفلامنكو" بجمل عبقرية وتشريح حقيقي للإحساس.

غاص "طارق" في ملامح وجهها الأخَّاذ .. في هذه المرأة شيء ما لا يستطيع تفسيره، شيء يجعلك تستمتع بالنظر إلى وجهها وعينيها الناطقتين بألف معنى، ويجعلك تستمتع بالحديث معها واكتشاف جمال آخر لديها، فالحوار معها متعة عقلية وروحية ونفسية وإنسانية.

سألها:

- كان سفرك إلى برشلونة بعد موت "خالد".. أليس كذلك؟

أومأت برأسها:

- نعم.. كنت أمرُّ بحالةٍ نفسيةٍ سيئةٍ جدًّا، وانتهزت فرصة مهمة عمل أوفدني فيها البنك إلى إسبانيا، وسافرت لأختلي بنفسي وأغسل أحزاني.

- وماذا أعجبك في رقص الفلامنكو؟

- أعجبني؟ قل بهرني.. راقص الفلامنكو يذوب بجسده في معنى الجملة الموسيقية.. الإحساس هو البطل الرئيسي وليس الحركة، فكل حركة تصدر من أحد أعضاء الجسم تحدث بإشارة من الإحساس المتدفق وبأوامر من المخ الذي يستغرق تمامًا في قصة الرقصة ويتوحد مع معانيها.

- الرقص الإسباني قصة يا "طارق".. فن رفيع ورائع.. هل شاهدته من قبل؟

ابتسم بسعادة وقال:

- شاهدته، وحدث لي مثلما حدث لكِ تمامًا، لكنني كنتُ أريد أن أستمع منكِ إلى هذا التحليل الجميل لرقص الفلامنكو.. الحديث معكِ يا "شهد" متعة لا يعادلها شيء.

- شكرًا يا صديقي العزيز.. والآن ما رأيك في فنجانين من القهوة من يدي؟

- لا.. أنا أفضِّل نخرج شوية يا "شهد".. عاوز أكلمك في موضوع يحتاج إلى تركيز.. تعالي نقعد في سوفيتيل الجزيرة.. انتِ بتحبي الـ"ڤيو" هناك.. منظر النيل، والنبيذ، والوجه الحسن.

ضحكا وغادرا البيت متجهين إلى سوفيتيل الجزيرة.

* * *

كان "طارق" قلقًا طوال الطريق من بيت "شهد" و"أحمد" بالشيخ زايد إلى الفندق الشهير المطل على نيل القاهرة.. لم يكن يدري كيف سيكون وقع الخبر عليها.. صحيح يعرف جيدًا أن "أحمد" لم يكن أبدًا في بؤرة تفكيرها، وأنه بالنسبة لها ليس إلا زوجًا مثاليًّا مهتمًّا ببيته وأولاده، لكنه يدرك أيضًا أن كبرياء المرأة يأبى هذا الموقف.. أن يجيء الزوج ويعترف لزوجته التي عاشرها لسنوات طوال، وبنى معها مؤسسة زواجه بكل مفرداتها وتبعاتها.. إنجازاتها وإخفاقاتها، يعترف أنه - وبعد كل هذه السنين - وقع في حب امرأةٍ أخرى، ويريد أن يعيش معها حياته المقبلة، ويستعيد في رفقتها شبابه الضائع ويعوِّض بين أحضانها أيامه الرتيبة، ويحوِّل مشاعر الأخوة الباردة مع شريكته القديمة إلى مشاعر متأججة بالرغبة والمتعة والإشباع مع الشريكة الجديدة.

المرأة لغز، هذا صحيح، فقد تكره زوجها أو تكفُّ عن حب رجلها، لكن ذلك لا يمنعها من الثورة والغضب إذا ما اكتشفت انصرافه من عالمها إلى عالم امرأة أخرى.

الحب شيء وكبرياء الأنثى شيء آخر.. هذا ما قرأه في الروايات وتابعه في قصص الكثيرين من أصدقائه وصديقاته في معترك الحياة.

تلاحظ "شهد" شرود "طارق"، وتقرأ في عينيه الكثير من الكلام.. هي تعرفه جيدًا وتكاد تقرأ ما يدور في رأسه من صراعات وأفكار، لذلك باغتته بسؤالها:

- ما الذي يقلقك يا "طارق"؟ هات ما عندك دون تفكير.. هل تفكِّر في السفر لرؤية "جيسيكا"؟ أم...

يقاطعها "طارق" ليرمي كرة النار بأقصى سرعة، ويتخلَّص من توتره:

- "أحمد" يريد الزواج من امرأة يعرفها منذ فترة يا "شهد".. قال إنه يخاف من الزنا ؛ خُصُوصًا بعد أن حجَّ واعتمر أكثر من مرة.. هو كلَّفني بإخبارك لأنه لا يقوى على مواجهتك، ويقول عنكِ شعرًا في إنسانيتك وفرادتك وحُسن.....

تقاطعه بنبرةٍ حاسمةٍ، ووجهٍ احتدَّت ملامحه فجأةً، وتقلَّصت عضلاته:

- أخبره بأنني أطلب الطلاق فورًا، وقل له إنني لا أريد منه شيئًا على الإطلاق، وأبلغه تهنئتي.. زواج مبارك.

يبتلع "طارق" ريقه ويحاول أن يكمل الرسالة التي حمَّله بها صديقه الحميم:

- هو يريدك أن تبقي، فهذا سوف يكمل سعادته لأنه يحبك ويحترمك ويحفظ العِشْرة الطويلة بينكما.

تضحك بتهكُّم:

- قل له إنني لن أبقى ولا أريد منه شيئًا، أما ولدانا فلهما حق الاختيار.. "سيف" و"سارة" الآن شابان، يستطيع كل منهما أن يختار أين يعيش، ومع من..

- لكنه يعرض عليكِ يا "شهد" شراء شقة باسمك في أي مكان تختارينه، كما أنه يتعهد بإرسال مبلغ شهري ثابت للنفقات.

بنبرةٍ متعاليةٍ رافضةٍ تقول "شهد":

- قل له يوفِّر فلوسه.. الحمد لله عندي ميراث أبي، ومكافأة نهاية الخدمة التي صرفها لي البنك عندما استقلت تكفيني حتى أقابل وجه الله.. لا أريد منه أي شيء.. شكرًا.

يقترب "طارق" من "شهد".. يربت على كتفها بحنان.. تصده بعصبية:

- لستُ في موقف ضعفٍ يا "طارق".. أنت بالذات لا أستطيع أن أستقبل منك مشاعر الشفقة والعطف.. أنا قوية يا "طارق" وأنت تعرف ذلك.

تجهش "شهد" فجأة في البكاء، كأن بركان الأحزان قد انكسر غطاؤه فجأةً وتناثرت حممه في كل مكان.

لم يتكلم "طارق"، ولم تتكلم "شهد".. غاصت رأسها الصغيرة في صدره وتوقفت لغة الكلام.. لم يكن هناك شيء يُقال.. كان الصمت في تلك اللحظة أقوى من الصراخ..

اختار "سيف" الإقامة مع أمه "شهد" في بيت العائلة بالسيدة زينب، واختارت "سارة" البقاء مع أبيها في ڤيلته بالشيخ زايد.

كانت شقة السيدة زينب مقفولةً منذ وفاة أم "شهد" قبل عدة سنوات، وكانت الأتربة تردم الأثاث والسجاجيد والمفروشات.. أمضت "شهد" أسبوعًا مع خادمتها "نادية" و"أيمن" زوج "نادية" في تنظيف الشقة.. أتت بالنقاشين ليطلوا الجدران بطبقةٍ نظيفةٍ من طلاء الزيت.

في استطاعة المرأة الحقيقية أن تحول أي مكان إلى جنة.. هذه حقيقة، فاللمسة الأنثوية تبعث الحياة حتى في الجماد أو الحجر، وهذا ما حدث لشقة السيدة زينب ذات الأسقف العالية والحجرات المتسعة والمساحات الفضفاضة.. حوّلتها شهد إلى تحفةٍ فنيةٍ تريح النفس، وملتقى لأصدقاء يعشقون لغةً واحدةً هي لغة الثقافة، ويجمعهم حب الفن والأدب.. الشعر والجمال.

وجدت "ليلى" نفسها للمرة الأولى في هذا المكان، فهنا أحست أنها منتميةٌ، وتَبَدَّد إحساسها المرير بالغربة سواءً في مصر أو موطنها الأصلي بريطانيا.

شيء ما في المكان أعطاها ما كانت تبحث عنه طوال عمرها.. السكينة والقبض على الجذور.. أن تشعر أنها تنتمي إلى مكانٍ ما، وأن لديها مجموعة من الأصدقاء والصديقات، وأنها تشعر بالدفء الإنساني الحقيقي بين هؤلاء.

أما "سيف" فقد ارتمى في أحضان الأصالة.. أحب المكان بنفحاته ورائحة الغورية والتاريخ الذي يغمر شوارع السيدة زينب.. بهرته طقوس الحي الشعبي بأنواره، وفوانيس رمضان التي تمتد بسلكٍ طويلٍ.. مضاءة متلألئة فيما يشبه الفرح.

أحس "سيف" بمشاعر جديدة.. طبيعية.. طازجة.. عشق بيت جدته، الذي أصبح الآن بيته وأمه "شهد" التي يحبها أكثر من حبه لأي إنسان على الأرض.

ونقل "سيف" لقاءاته مع أصدقائه – التي كانت في الغالب تتم في النادي أو في إحدى كافيهات المهندسين – إلى بيت السيدة زينب، والغريب أن أصدقاءه الشباب والشابات أحبوا المكان.. شعور غريب بالراحة يتسلل إلى كل من يدخل هذا البيت.. كأنه السحر.

غرف متسعة عديدة.. أرائك من الطراز القديم.. صالون أرابيسك.. لمسات رائعة يضيفها مرتادو المكان خُصُوصًا "ليلى"، حيث كانت تشارك "شهد" التخطيط والتحديث لكل ركن في ذلك المكان البديع مع الاحتفاظ بطابعه القديم وطرازه الفريد، فهنا مكمن السحر القادم من جدرانه.

"ليلى" و"سيف" يرويان معًا شجرة حب تتوارى خلف صداقةٍ ظاهرةٍ، لا يجرؤ أحدهما أن يبوح للآخر بما يمور داخله من مشاعر، لكنهما صديقان حميمان.. هذا ما يجهران به ولا يجدان سببًا لإنكاره.

في ظل تلك التطورات التي طرأت على حياة "سيف"، وجد نفسه مدفوعًا لاتخاذ موقف واضح وشجاع مع صديقته الحميمة "عالية"، كأن موقف أمه من حياتها وشجاعتها في مواجهة مفاجآت القدر وتقلباته جعله أيضًا يعيد حساباته ويراجع أوراقه، ويعلن انسحابه من حياة "عالية" كحبيب، ورغم أنه كان يود أن يصبحا صديقيْن مقربيْن، فإن طبيعة الأمور لا تقبل ذلك، فالصداقة قد تتطور فتصير حبًّا، أما الحب فهو الملك المتوَّج على عرش القلب.. لا يقبل أن يتنازل عن عرشه، ولا يرضى بمنصب وزير في بلاط صاحب الجلالة أو حتى رئيس وزراء.

كانت "عالية" تشعر بالتغيير الذي طرأ على حياة "سيف"، وكانت تكذِّب نفسها في كثير من الأحيان، فهي تحبه وتتمنى أن يظلا حبيبيْن حتى يتخرجا في الجامعة، وبعد ذلك يجمعهما الارتباط الرسمي والزواج.

لكن الرياح لا تأتي في معظم الأحيان بما تشتهي السفن.. ظهرت "ليلى" لتقلب المقادير وتغيِّر الخطط، وتزيح الحب القديم لتتربَّع هي على عرش قلب "سيف".

أما "سارة" فقد رفعت راية التمرد في وجه أمها.. رفضت زيارتها أو حتى الحديث معها تليفونيًّا.. علاقة غريبة تتنازعها مشاعر شتَّى هي علاقة "شهد" بـ"سارة".. الابنة الشابة تحب أمها لكنها تغار منها أحيانًا وعليها

أحيانًا أخرى، تتعاطف مع ضعف الأم وتكره قوتها وتمردها.. تحب أن تراها سعيدةً وترفض الاعتراف بكونها امرأةً جميلةً لا تزال.. مرغوبةً لا تزال.. رغم مرورها بحاجز الخمسين.

أكثر من نصف القرن يا أمي ولا يزال قلبك ينتعش بالحب؟ متى تشيخين؟ متى تكبرين وتصبحين أمًّا مثل اللاتي نراهن في أفلام زمان.. الأبيض والأسود؟

البنت تحس بأمها، وفي الأشهر الستة الأخيرة كانت "سارة" تلتقط - برادار الأنثى - ذبذبات الحب تغزو المجال الجوي لـ"شهد"، وترقب بعين المرأة لمعة الفرحة الطفولية تطفو على سطح عينيْ "شهد" عندما يزورهم أنكل "طارق".

ترصد تحركات "شهد" قبل وبعد وأثناء الزيارة.. الاهتمام بالتفاصيل الصغيرة يكشف المرأة، والتفكير بنَفَس أنثويٍّ يعني أن رجلًا قد اقتحم الدائرة الممنوعة، بعدما عطَّلَ جهاز الإنذار.

- ما الذي حدث لكِ يا "شهد"؟ هل سئمتِ الحياة مع أبي الدكتور "أحمد خيري"؟ هل مللتِ العيشة الزوجية الهادئة المستقرة، وهفت نفسكِ إلى التغيير؟ هل هي أزمة منتصف العمر التي أشعلت داخلكِ وهج النزوة؟.. لا أعرف تحديدًا، لكن ما أدركه يقينًا هو أنني لا أطيق العيش معكِ الآن.. لا أستطيع أن أفرمل مشاعر الغضب والغيرة والدهشة.. كيف هان عليكِ عِشْرة ثلاثين سنة؟ كيف تتركينني وتهجرين بيتك الذي تحمل جدرانه أنفاسك، وتنطلق من كل ركن فيه نبرات صوتك؟

- ستقولين إنه سيتزوج عليك وإنك لا تقبلين ذلك؟ منذ متى يا أمي لا تقبلين ذلك؟ كم مرة دخلت عليكِ غرفتكِ لأجدك تنخرطين في البكاء وتدارين دموعكِ؟ وعندما كنت أضغط عليكِ حتى أعرف سبب بكائك كُنْتِ تحكين لي بصوت متقطع ونبرة مشبعة بالألم، كيف وجدتِ آثار علاقة غرامية مع امرأة أخرى في ملابسه الداخلية، وكيف أنك زهدتِ علاقتكما الزوجية بسبب روائح النساء التي تتشبث برائحة جسده وتذوب فيها، لتصنع خلطة غريبة من الروائح تفوح منها رائحة الخيانة.

- أعرف أنكِ تألمت وتعذبت بالجرح، لكن بمرور الأيام أصبح جرحًا مزمنًا تعودت ملمسه، ولم تعد لسعته تؤذيكِ كما كانت في البداية.. كل شيء قابل للتعود حتى الألم.

- كثيرًا ما فكرتُ وخمنتُ ما يدور داخلكِ.. قلت إن أمي "شهد" سيدة الـ"compromise" التوازنات، وإنها تحسبها جيدًا، وربما تقول لنفسها إن الدكتور "أحمد" هو صاحب المؤسسة الزوجية الناجحة التي شاركته في ملكيتها، وهو رئيس مجلس إدارة ناجح في الصعود بتلك الشركة سنةً بعد سنةٍ.. إنه يحب ولديْه "سيف" و"سارة"، ويحبني أنا أيضًا مثل معظم الرجال المصريين الذين يحبون زوجاتهم حب العِشْرة.. حب أخوة يعني.. وبس!.. وهو شخصية مرموقة ويعاملني برقة واحترام.. إذن ما المشكلة؟ المشكلة أنه يطعنني في أنوثتي ويؤكد لي في كل يوم أنني لم أعد الأنثى التي تثيره أو تحركه؟ طيب.. هل أرغب أنا في أن أكون هذه الأنثى في حياة "أحمد"؟ الإجابة بالتأكيد: لا، وأحمد الله أنه لم يعد يقترب مني لأنني أكره

هذه اللحظات التي أشم فيها رائحة الأخريات المختلطة برائحته، وأشعر بالغثيان إلى حد القيىء أحيانًا عندما أتذكر تلك الرائحة.. إذن.. هذا هو الـ"compromise".. يخون وأعيشُ في هذا البيت الجميل وتلك المظلة الاجتماعية الهائلة، وفي حضني ولدايَ اللذان خرجت بهما من الدنيا..

- أتعرفين يا "شهد" الآن أنني قرأتك جيدًا.. ربما لا تتخيلين أنني كبرت إلى هذه الدرجة، واستطاع تفكيري أن يرصد كل هذا رغم أن تجربتي في الحياة محدودة جدًّا، بل لا أستطيع أن أدَّعي أنني صاحبة تجربة على الإطلاق، إذن لماذا الآن يا "شهد" تثورين لكرامتكِ الجريحة وأنوثتكِ المهانة؟ لماذا تتركين بيتك وتتركينني؟.. من أجل "طارق" يا أمي.. أليس كذلك؟

سافر "طارق" إلى لندن.. كانت الدراسة قد بدأت في جامعة أوكسفورد، وكان عليه أن يكون هناك ليلقي محاضراته في مادتي الأدب العربي والأدب المقارن.

لم تصحبه "ليلى" في هذه السفرية، فقد كانت مشغولةً بتقديم أوراقها بالجامعة الأمريكية بالقاهرة بعدما قررت الإقامة في مصر والاستقرار بها، كذلك اختارت أن تقيم مع "شهد" في بيت العائلة بالسيدة، وألحّت على والدها حتى وافق بعدما رحّبت "شهد" بهذه الرغبة وفرحت بها.

"مصحة لندن لعلاج الإدمان" كانت وجهته الأولى.. لم تغب "جيسيكا" عن ذاكرته رغم تزاحم الأحداث في مصر وانشغاله حتى النخاع بـ"شهد".. كانت "جيسيكا" بوجهها الشاحب وعينيها الزرقاوين الناطقتين بالألم في آخر لقاء لهما قبل سفره، تظهر أمامه بين الحين والحين، كأنها صورة الضمير.

دخل غرفتها متلهفًا لرؤيتها والاطمئنان على حالتها بعد مرور شهور ثلاثة على آخر زيارة.. قابلته "جيسيكا" بوجه مبتسم وملامح هادئةٍ.. كانت عيناها صافيتين هذه المرة بعدما تبدَّدت تعبيرات الألمِ على سطحها.

ارتاح "طارق" لرؤيتها ولإحساسه أنها تحسَّنت كثيرًا، وراوده شعور أنها قد شُفيت تمامًا، وبرأت من هذا البلاء الذي جثم على حياتها وحياة "ليلى" طويلًا.

رحّبت به "جيسيكا".. ألقت الكتاب الذي كانت تقرأه جانبًا عندما رأته يدخل غرفتها.. لم تكن تعرف أنه آتٍ لزيارتها الآن رغم علمها بموعد سفره، فقد توقعت أن يأتي لزيارتها في اليوم التالي لوصوله، أما أن تراه أمامها بعد ساعةٍ تقريبًا من موعد وصول طائرة "مصر للطيران" القادمة من القاهرة إلى لندن ، فهذه كانت مفاجأةً حقيقيةً أضاءت الفرحة في قلبها من جديد.

- كيف حالك الآن يا "جيسيكا"؟ تبدين رائعة اليوم.

قالت وقد ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهها :

- أنا فعلًا تحسنت كثيرًا ، والآن أشعر أنني شُفيت تمامًا عندما رأيتك يا "طارق".

لم يرَها بهذا الصفاء وذلك الهدوء منذ كانت الحادثة السوداء في حياتهما.. احتضنها لدقائق وساد الصمت بينهما.. صمت ملىء بالكلام والعتاب والدموع.. صمت أشبه بالصلاة والتسبيح والسجود والشكر لرب العالمين، الذي أزاح المرارة والألم من قلب شفاف أقرب إلى قلوب الأطفال و الملائكة.

سألها للمرة الأولى السؤال الذي ظل يتردد داخله، وينغز مسام إحساسه:

- هل سامحتني يا "جيسيكا"؟ هل غفرتِ لي؟

أجابته بنظرةٍ عميقةٍ وعينين ترقرقت فيهما الدموع:

- نعم.. سامحتك يا "طارق".. أنا أحبك.

التقط كف يدها.. طبع فوقها قبلةً طويلةً وعميقةً، وأحسَّتْ بقطراتِ ماءٍ تنساب على كفها، فأمسكت رأسه بكفيها بحنان، وقالت:

- أتبكي يا "طارق"؟ أرجوك لا تفعل.. لقد نسيت كل شيء.. نسيت فعلًا.. ذاكرة الغفران أقوى من ذاكرة الإنسان.. والغفران قدرة نقتبسها من الغفار الأكبر.. الله يغفر لنا خطايانا وسيئاتنا، فكيف لا نقتبس من خالقنا أجمل صفاته؟

احتضنها "طارق" بقوة هذه المرة، وأجهش في البكاء كأنه ترك لمشاعره العنان، أو كأن بركانًا محمومًا مكتومًا يغلي بالألم ووخز الضمير قد انكسرت قشرته فجأة، فراح يُخرج ما بداخله من نار العذاب وصهده.

ركع "طارق" على ركبتيه أمام "جيسيكا"، ووضع رأسه على ركبتيها في مشهد توسُّل ورجاء:

- أرجوكِ يا "جيسيكا" سامحيني من قلبك.. أرجوكِ.

ربتت "جيسيكا" على رأسه بكفيها الحانيتين، وداعبت أصابعها خصلات شعره دون أن تنبس بكلمة..

قامت من مقعدها لتعد كوبين من النسكافيه.. جلسا يتبادلان النظرات ويشربان النسكافيه ذا الرائحة الخلابة المميزة.

بادرت "جيسيكا" بالسؤال والابتسامة لا تزال مرتسمةً على وجهها:

- هل تنوي الإقامة في مصر يا "طارق"؟ "ليلى" أخبرتني بقرارها وأنا شجَّعتها عليه.. "ليلى" مصرية وأنت مصري، ويجب أن تعيشا هناك حيث التاريخ المبهر والجذور.

رمقها بنظرةٍ متسائلةً، وقال:

- وأنتِ يا "جيسيكا".. هل تأتين للإقامة معنا في مصر؟

هزَّت رأسها بالنفي، وقالت:

- لا يا "طارق".. أنت تعرف مرضي الثاني.. أنا مريضة بالوطن.. أنت تعلم ذلك جيدًا.

واستطردت، بينما كانت تقرأ عشرات الأسئلة المعلَّقة في عينيه:

- هناك خبر جميل أريدك أن تعرفه.. لقد وافق مجلس الجامعة على عودتي إلى التدريس بها مرة أخرى، بعدما قدمت شهادةً طبيةً معتمدة من المصحة وموقَّع عليها من خمسة أساتذة استشاريين بأنني برأت تمامًا من الإدمان، وأنه ليست هناك أية خطورة من وجودي الآن في الجامعة، وليس هناك ما يمنع من ممارستي مهنتي، وأوصوا بذلك وقالوا في تقريرهم إن هذا المناخ الصحي كفيل بإعادة تأهيلي بعد الشفاء، كما أن الحب الذي يربط بيني وبين طلبتي سيدعم قوتي النفسية، وسيجعلني أقبل على الحياة بالإرادة ودون الاستعانة بالكحوليات.

فرح "طارق" جدًّا بهذه الأخبارالمتفائلة، وامتلأ قلبه بالرضا وراحة الضمير.. تلك النعمة التي افتقدها طويلًا وها هي تعود إليه أخيرًا.

تهلَّل وجه "جيسيكا" فجأة عندما تذكرت الحملة المنظمة التي قادها طلبتها في الجامعة، وكان لها الفضل الأول في صدور قرار مجلس الجامعة بعودتها إلى التدريس، وقالت:

- تصور يا "طارق".. الطلبة والطالبات شنُّوا حملةً جبارةً على الإنترنت، وجمعوا توقيعات زملائهم وطالبوا بعودة "الـمُدرِّسة المثالية".. هكذا أطلقوا عليَّ يا "طارق".. و....

قاطعها قائلًا:

- أنتِ فعلًا كذلك يا "جيسيكا".. أنتِ مثالية في كل شيء.. وإنسانة قبل كل شيء.

أكملت بحماس:

- تخيَّل أنهم صمَّموا "بوسترات" وقاموا بلصقها على الجدران في الجامعة مطالبين بعودتي.

ابتسم بسعادةٍ وقال:

- تستحقين هذا وأكثر يا "جيسيكا".. أنتِ إنسانةٌ رائعةٌ وأستاذة بكل معنى الكلمة.

ارتشفت قليلًا من النسكافيه وسألته:

- وأنت يا "طارق".. ما أخبارك؟ ماذا تنوي أن تفعل في مصر؟ هل ستنتقل للتدريس في جامعة القاهرة كما كنت تخطِّط من قبل أم أن لديك مشاريع أخرى؟

كانت الدهشة تسيطر على "طارق" وهو يستمع إلى "جيسيكا".. هل رتبت هذه السيدة الذكية كل الأمور؟ هل رسمت خريطةً جديدةً لحياتنا تُرْضِي جميع الأطراف؟ هل توقعت أنني قادم إليها لأفاتحها في كل هذا، فقامت بالمبادرة الذكية حتى لا تحملني عناء التفكير في مدخل للحديث الشائك، ولكي توفر عليَّ حرج اللحظة الرهيبة التي سأطلب منها فيها صيغة مقبولة لعلاقتنا الثلاثية.. أقصد علاقتي بها كزوج، وعلاقة "ليلى" بها كابنة وحيدة؟

كم هي إنسانة تلك المرأة.. كم هي ذكية وحساسة ونادرة.. سأظل أحبك يا "جيسيكا" ما حييت.. لا تندهش.. فالحب أكبر بكثير من مجرد علاقة جنسية أو زوجية أو حتى عاطفية بين رجل وامرأة.

أنا أحب "جيسيكا" وأحب "شهد"، لكن حبي للأولى مختلف عن حبي للثانية.. حُبِّي لـ"جيسيكا" حب مليء بالانبهار بهذا النموذج الإنساني النقي إلى حد الشفافية.. النقاء البلوري المذهل، كما أنني أحمل لها الكثير من الامتنان لكل ما فعلته معي وفي حياتي، كما أحمل أضعاف هذا الامتنان للعناية الفائقة التي أحاطت بها ابنتنا "ليلى"، والتربية المميزة التي أنشأتها في ظلالها، فمنحتني ابنة أفخر بها.

أما حبي لـ"شهد" فهو حب الاكتمال.. نصف حبة الفول التي انقسمت منذ عشرات الآلاف من السنين وذهب كل نصف في اتجاه.. حملته رياح وحطت به في بلاد الله وأرض الله، وفعلت الرياح الشيء نفسه، ولكن في اتجاهٍ آخر وبلاد أخرى.. ثم.. وفي لحظة قدرية غامضة التقى النصفان لقاءً مدويًّا صاخبًا.. "أنا" نصف حبة الفول الأولى، و"شهد" نصف حبة الفول الثانية.

الآن جاء الدور عليك يا "طارق".. ماذا ستقول لـ"جيسيكا"، وكيف ستصارحها بخططك في الإقامة بمصر؟ كيف ستخبرها بموضوع "شهد"؟ وكيف ستقول لها إن "ليلى" اختارت الإقامة في بيت "شهد" لا في بيتي بمصر؟ مهمة صعبة لكن عليك أن تتشجَّع يا بطل.

تفاجئه "جيسيكا" بسؤال مباغت:

- ما أخبار "شهد"؟

يرتبك قليلًا ويخفي ارتباكه بضحكةٍ ويقول:

- أنتِ أيضًا تعرفين "شهد"؟

ثم بلهجةٍ مازحةٍ:

- هل لديك كاميرات مراقبة تتابعين بها حركاتنا أنا و"ليلى" عن بُعد؟

تبتسم "جيسيكا" وتقول:

- تحدثني عنها "ليلى" كثيرًا، لدرجة أني أتوق إلى رؤيتها.. "ليلى" تحبها كثيرًا.. وتقول إنها ترغب في الإقامة معها في بيتها بعدما انفصلت عن زوجها.

ينظر إليها "طارق" بحيرة.. هل ينتهز هذه الفرصة الذهبية ويبوح لها بكل شيء؟ هل يمكن أن تتسع مساحة الغفران والتسامح داخلها لتقبل علاقته الوليدة بـ"شهد"؟ تلك العلاقة التي ولد معها من جديد وشعر معها بالانعتاق الحقيقي من القيود، وفك أسر نفسه من أغلال الشعور بالذنب والخطيئة؟

يجيبها بعد لحظات من الصمت:

- فعلًا "ليلى" تحبها كثيرًا وتجد نفسها في بيت "شهد" الذي تحوَّل إلى ما يشبه بيت للثقافة والفنون، كثير من الكُتَّاب والفنانين والموسيقيين يلتقون هناك.. حتى الشباب جذبتهم الفكرة، وأصبح لهم الركن الخاص في بيت "شهد" القديم.. يسهرون هناك.. يتسامرون ويلقون أشعارهم، ويعزفون على العود والجيتار، ويغنُّون.. شيء أشبه بجو "المونمارتر" في باريس يا "جيسيكا"، ولكن في بيت قديم بالسيدة زينب.

تبتسم "جيسيكا" وهي تُنْصِتُ بسعادةٍ لكلام "طارق" وتهز رأسها تعبيرًا عن انبهارها بهذا الجو الساحر الذي يصفه طارق، وتتخيل وهي تستمع إليه ذلك المشهد الخلاب بكل تفاصيله، ثم تطلق تنهيدة عميقة.. وتقول:

- أخيرًا اطمأننت عليك يا "ليلى".

يصوب إليها "طارق" نظرة متسائلة.. فتكمل كلامها قائلة:

- بصراحة يا "طارق" كنتُ قلقةً أخاف عليها من إحساس "اللامنتمية".. فهي هنا أوروبية وهناك أفريقية.. هنا إنجليزية وهناك مصرية.. تحمل اسمًا مصريًّا – رغم أنه انتشر الآن في بلدانٍ كثيرةٍ – وتحمل ملامح نصف أوروبية.

يبتسم "طارق" مؤيدًا وسعيدًا بتحليل "جيسيكا"، فكم أرقته هذه المشكلات وأقلقته، لكن "ليلى" وجدت نفسها أخيرًا مع "شهد" وفي أجواء بيتها الدافئة التي تنطق بالثقافة، وتشع بالفن والجمال.

- إذن ستبقين هنا يا "جيسيكا".. هل هذا هو قرارك الأخير؟

- نعم سأبقي يا "طارق".. وسترحل أنت و"ليلى" إلى أرض الفراعنة التي طالما أحببتها، وأحببتك.

وبلهجةٍ متسائلةٍ يبادر "طارق" قائلًا:

- إذن كيف سنصوغ شكل العلاقة يا "جيسيكا"؟

تسدد إليه نظرة نافذة وتقول:

- أتريد الطلاق يا "طارق".. إذا كنت تريده فلن أعترض.. سنظلُّ أصدقاء إلى الأبد مهما كانت علاقتنا..

يرتبك "طارق" من شجاعتها الفائقة في مواجهة موقفٍ صعبٍ ، كان يحسب له قبل أن يأتي لزيارتها ألف حساب، ويقول:

- لا.. لا يا "جيسيكا".. أنا لا أريد الطلاق.. إلا إذا كانت هذه رغبتك، فالوضع ربما سيكون صعبًا عليك، والوحدة قد تدفعك للارتباط بشخصٍ آخر، وهذا حقك بالتأكيد.

تبتسم وتومئ برأسها.. وتقول:

- عندما يظهر فارس الأحلام يا "طارق" سأقول لك: طلقني، وعندئذ أعتقد أنك لن تمانع.. مساحة التفاهم والمحبة والتقدير والاحترام بيننا تسمح لنا بالارتفاع بمستوى علاقتنا إلى هذا الحدِّ من الصراحة.. أليس كذلك؟

يهُزّ "طارق" رأسه موافقًا ومتأملًا في آن .. ويقول:

- إذن فأنت تريدين الإبقاء على علاقتنا كما هي؟

- نعم.. من أجل "ليلى".. أنا لا أريدها أن تشعر بتصدُّع حياتنا.. لا أرغب في أن ألقي بها في بحر آخر من الألم.

وتكمل "جيسيكا" كلامها بلهجةٍ أنثويةٍ يفوح منها الذكاء:

- أما أنت يا "طارق" فمن حقك أن تتزوَّج.. ألا تمنحكم الشريعة الإسلامية الحق في الزواج من أربع نساء؟

تربكه صراحتها أكثر.. وتتقطع الكلمات على شفتيه مراوغةً:

- زواج إيه؟ أنا لا أفكِّر في هذا إطلاقًا.

تسدد إليه نظرةً نافذةً.. وتقول بنبرةٍ أموميةٍ حانيةٍ:

- تزوج "شهد" يا "طارق".. لن أحزن، بل سأبارك هذا الزواج.. صدقني.

عاد "طارق" إلى مصر منتعشًا.. إحساسه بنفسه أخف من عصفور، أثقال تنوء بها الجبال كان يحملها وحده، ولا يتجاسر على الحديث بشأنها حتى مع "شهد".. فعلتها "جيسيكا" وأهدته أغلى الأشياء.. راحة البال.. والضمير..

الكل كان في انتظار عودته.. أولهم "شهد".. طبعًا لم تطق البقاء في البيت حتى يصل.. ذهبت إليه، وكانت أول المستقبلين في المطار، ومعها "ليلى" و"سيف".

انطلقت بهم السيارة إلى "بيت العيلة" كما أسمته "شهد" بعد أن تحوَّل إلى ملتقى لمجموعة من البشر يتقاسمون الإحساس نفسه، ويسبحون على أمواج الشعر والفن والجمال.

كان العشاء جاهزًا.. أعدته "شهد" بنفسها وأنفاسها، فصنعت أطباقًا بطعم الحب، لكنها صاحبة "ستايل" في ترتيب تلك الأمسيات الحميمة.. تفترش المقبلات والمكسرات والمشروبات على مائدةٍ جانبيةٍ طويلةٍ عليها مفرش ذو نقوشٍ جميلةٍ مطرزٌ بالـ"كانافاه"، وحول الأطباق والزجاجات وعلب المشروبات المعدنية (الكانز) تضع عشرات الأكواب والأطباق.. الشوك والسكاكين والمناديل الورقية.

وبينما يعزف "محمود" الشاب العشريني الحالم أنغام أغنياته ومقطوعاته الموسيقية على أوتار العود الأبنوسي، يلتف الشباب والشابات من أصدقاء "ليلى" و "سيف"، ومريدي "طارق" من تلامذته طلبة الجامعة الذين لطشتهم موجة الشعر والأدب.

يجلس الجميع الكبار والصغار في حضرة الفن والموسيقى، حيث تذوب الفوارق وتسقط الحواجز، فتجد من يدندن مع جزء يثير فيه الحنين إلى الذكرى، ومن يحرك إحدى قدميه مع "رِتم" يحبه، ومن يغوص بملامحه في جملةٍ موسيقيةٍ، فيرتفع صوته بالغناء ويعلو إحساسه حتى يلامس عنان السماء.

الجلسة الحميمية في "بيت العيلة" تسبق العشاء الرسمي المعد هذه الليلة فقط وبشكل استثنائي على شرف "طارق" الذي غاب عنهم أسبوعين، لذا فالاحتفالية هذه الليلة خاصة جدًّا.. الغناء والشعر والموسيقى.. المقبلات والمشروبات أولًا تتخللها حكايات "طارق" التي تمثِّل الفقرة الرئيسية في كل الأمسيات، ثم تختتم بالعشاء الفاخر المعجون ببهارات الحب!

* * *

رقَّ الحبيب وكان له مدة غايب عني
صعب عليَّ أنام أحسن أشوف في المنام
غير اللي يتمناه قلبي.. سهرت أستناه
وأسمع كلامي معاه.. وأشوف خياله قاعد جنبي..
وأشوف خياله.. خياله قاعد جنبي..

من كتر شوقي سبقت عمري
وشفت بكرة والوقت بدري
وإيه يفيد الزمن مع اللي عاش
في الخيال.. واللي في قلبه سكن..

يذوب الجميع مع كلمات أغنية "رقَّ الحبيب" لـ"ثومة" (أم كلثوم) وألحان رياض القصبجي التي تخترق القلب.

تنساب الدموع من عينيْ "طارق" وهو يستمع إلى عزف "محمود" وغناء "سلمى".. هذين الشابين اللذيْن تتلمذا على يد مايسترو عظيم هو "سليم سحاب" الراهب في محراب الفن.. يذكرني بـ"جاديليو" المايسترو الجليل في فيلم "عبد الحليم حافظ".

وتطلب "شهد" من الفنانيْن الشابيْن أغنية **"أمانة عليك يا ليل طوِّل.. وهات العمر م الأول"**.. يدندن الجميع مع ضربات الريشة التي تصدح بها أوتار العود تحت يديْ محمود، ويصفِّق الجميع مع نغمات الموسيقى التي تفتح أبواب الماضي المغلقة، فتخرج منها نسمات الحب ونفحاته لتضيف إلى العمر عمرًا، وإلى اللحظة أعماقًا لا حدود لها ولا نهاية.

إنها أمسيات "شهد" و "طارق" التي ترضي جميع الأذواق، وتجذب الشباب قبل الكبار.. طارق بـ"كاريزمته" الطاغية يشد الجميع للاستماع إلى حكاياته، وفي كـل حكاية حكمة أو مغزى أو درس أو تجربة مثيرة تستحق أن تروى.

تشاركه "شهد" هذه الميزة، وتملك عشرات الحكايات التي اختزنتها ذاكرتها من أمها وجدتها.. من قراءاتها وخبراتها، ومثله "حكَّاءة" لديها موهبة الحكي، وفن السرد المشوق الذي يجذب الآخرين إلى المتابعة والفضول.

التف الشباب حول "طارق" و "شهد" بعد العشاء الاستثنائي الذي أعدته "شهد"، وأشرفت على تفاصيله الصغيرة بمساعدة "نادية" الشغالة، و"ليلى" ابنتها الروحية.

يسأل "نادر":

- ما رأيك يا أستاذ "طارق" في الحب؟ هل أصبح الآن مجرد رمز للرومانسية، لكنه أبعد ما يكون عن أرض الواقع؟

يبتسم "طارق" متأملًا ملامح "نادر" ، وهو يتلو بيانه الصارم عن الحب الذي كان.. ثم يجيبه شعرًا:

- الحب في الأرض نوعٌ من تخيلنا.. لو لم نجده عليها لاخترعناه.

يكمل نادر الحوار قائلًا:

- وماذا لو تعارض القلب مع العقل يا أستاذ "طارق".. وهذا ما يحدث في أغلب الأحيان؟

رافعًا كف يده في حركة مسرحية وأداء تمثيلي:

- اذهب حيث يقودك قلبك.

- كيف يا أستاذ "طارق"؟ كيف؟

- حينما تقع فريسةً لهذا الصراع، وَتَحَار أي الطرق تسلك، لا تسير في أحدها حتى تحسم أمرك والسلام.. بل اجلس وانتظر.. تنفس بالعمق الواثق الذي تنفست به يوم جئت إلى الدنيا، ولا تجعل أي شيء يشد انتباهك.. انتظر.. انتظر طويلًا.. ثم توقف في هدوء واستمع إلى قلبك، وعندما يبدأ قلبك في الحديث أنصت إليه جيدًا، واذهب حيث يقودك.

- الله يا أستاذ.. الله على الفلسفة الرائعة دي.. يا جماعة الأستاذ "طارق" فيلسوف.. والله فيلسوف..

يضحك "طارق" على تعليق "عمرو".. هذا الشاب الذي يتمتع بملكة السخرية من أي شيء وكل شيء.. لديه "Sense of Humor" كما يقول الأمريكان.

يكمل طارق حديثه قائلًا:

- هذه الجملة التي تلخص فلسفة مهمة جدًّا في الحياة، احتفظت بها ذاكرتي ضمن المقولات أو الحكم التي أؤمن بها، والتي شكلتني ككاتب وإنسان.. هذه الجملة كانت عنوانًا لرواية كتبتها الروائية الإيطالية "سوزانا تامارو"، وترجمتها إلى اللغة العربية الدكتورة "أماني فوزي حبشي".. هذه الرواية لاقت نجاحًا عظيمًا في بلاد العالم، وبكل اللغات التي ترجمت إليها.. بطلة الرواية سيدة عجوز تجاوزت الثمانين، فقدت ابنتها الشابة وأصبحت حفيدتها الشابة تمثل لها الاثنتين معًا: الابنة والحفيدة.

واستطرد:

- قفزت إلى ذهن الجدة حينما اقتربت من الموت فكرة عبقرية، وهي أن تسجل للحفيدة ذكرياتها وخبراتها والدروس التي تعلمتها من الحياة.. ورأت الجدة أن هذه الذكريات أو المذكرات ستكون كنزًا حقيقيًّا أغلى من المال والعقارات التي يمكن أن تتركها لها.

- كانت الحفيدة تعيش مع جدتها.. ثم سافرت إلى الولايات المتحدة الأمريكية لتدرس هناك.. خافت الجدة أن تودِّع الحياة دون أن تترك ثروتها الحقيقية التي جمعتها خلال رحلة العمر لأحب إنسانة إلى قلبها، فقررت أن تمسك بالقلم والورق، وتحفظ كل الذكريات المهمة والأحداث التي مثَّلت منحنيات في حياتها.

- حكت لها عن طفولتها التي قضتها وسط عائلة محافظة تهتم بالشكليات والمظاهر.. عن زواجها من رجل ممل.. عن علاقتها المتدهورة بابنتها الوحيدة.. عن الموت المأسوي لابنتها الذي تشعر أنها مسئولة عنه، حتى وإن بشكل غير مباشر، أما النصيحة.. "الخلاصة" .. فكانت تلك الجملة التي اختارتها عنوانًا لروايتها: اذهب حيث يقودك قلبك.

كان كلام "طارق" يسحر الشباب، ويفجر داخلهم الأسئلة.. قالت "علا":

- قل لي يا أستاذ "طارق".. لماذا - رغم أننا شباب ولنا "دماغ" تانية خالص غيركم - أحببنا "بيت العيلة" لدرجة أننا لغينا القعدة في الكافيهات، وتقريبًا ما بنروحش في مكان تاني إلا الجامعة.. و"بيت العيلة"؟

يبتسم "طارق" ويقول وهو يشير إلى "شهد":

- اسألي صاحبة البيت يا "علا".. انت بتسألينى أنا.. أنا زيك مسحور بـ"بيت العيلة".

تبتسم "شهد" وهي توجه كلامها إلى "علا":

- إنه مثل "بيت الأحلام" الذي كتب عنه أنيس منصور في كتابه "شارع التنهدات"، وهو بيت في مدينة (رابالو) على ساحل الريفيرا، وصفه كاتبنا فقال إنه بيت بلا باب ولا شباك.. ولم يرتفع على الأرض إلا طابقين.. وحوله يدور العشاق يتمسحون فيه، ويتطلعون إلى السماء، ويتعانقون، ويسمونه (بيت الأحلام).. فهو لم يكتمل كالأحلام. والعشاق يكملون البيت في خيالهم، ويجعلون له لونًا وعطرًا ويملأونه بالورد والأطفال والأصدقاء.. كل واحد على هواه.. فبيت الأحلام كالأحلام لم يتم.. إنه مجرد مشروع.. إنه سيمفونية ناقصة.

- الله.. الله يا ست.. أعد.. أعد يا ست "شهد" أعد.

هكذا أطلق "عمرو" صيحته الساخرة التي تأتي دائمًا في موعدها كـ"الفينالة" لرواية على المسرح أو كنهاية لفصلٍ في رواية.

يضحك الجميع ويذهب "نادر" إلى حيث سخان المياه الكهربائي، فيدير الزر إيذانًا بتسخين المياه، وإعداد أكواب من الشاي بالنعناع تعدل المزاج.

يكمل "طارق" الإجابة عن سؤال "علا" فيقول:

- الفيلسوف الألماني "كانت" كان يحب تأمل البيوت القديمة والكنائس العتيقة، ويفكر فيما وراء تلك الجدران.. كان يستلهم أفكاره الفلسفية العظيمة من عبق تلك البيوت.

- أما أنا يا "علا" - لا يزال طارق يتحدث - فأشعر براحةٍ غريبةٍ في هذا البيت، أحسه حضنًا كبيرًا يحتويني، وأرى في أركانه الماضي يتكلم، وينبعث في صورة عصرية.. كأنه اختلط بأنفاسنا، وحرارة أحاديثنا ومشاعرنا فأصبح كائنًا له حضور، له رائحة وإيقاع.

هنا قام الشَّاعر أحمد الشهاوي من مقعده.. اتكأ على منضدةٍ عاليةٍ تجاور أخرى ، وضعت "شهد" فوقها جرامافون قديمًا ، وانطلق الشهاوي منتشيًا يقرأ عليهم أحدث قصائده.. أطلق بصره إلى اللاشيء كأن لا أحد هناك، أو كأنه يحاور كائنًا سرمديًّا لا وجود له إلا في عينيْ الشاعر.

قال الشهاوي:

ما الجحيم؟
سألتُ
أن تحبَّ
ولا صدى
أن تسألَ
ولا جوابَ
أن تكتبَ
ولا قارئَ

أن تنامَ
ولا أحدَ في الحلمِ
أن تبتهلَ
ولا إلهَ
أن تحملَ مفتاحًا
ولا بيتَ
أن تفتحَ كفَّك
فلا تجدَ امرأةً تقرأُ.

* * *

ثم قرأ – بعد فاصلٍ طويلٍ من التصفيقِ الحماسيِّ من جمهورِ "بيت العيلة" – قصيدة اسمها **"باب الوهم"**.. من ديوان **"باب واحد ومنازل"** ومنه أيضًا كان الجحيم.

رفع الشهاوي يده، وبدأ يقرأ كأنه يذوب في المعنى والكلمات:

كلُّ امرأةٍ
منحتْ قَلْبَهَا لشاعرٍ
تنتظرُ أَنْ ترى صورتَهَا
في القصيدةِ
ولهذا تتعذَّبُ الأرضُ.

* * *

طلب الحضور من الشهاوي أن يواصل قراءة أشعاره، واستجاب لهم، ثم عزف "محمود" لحن **"أنا هويت وانتهيت"** لسيد درويش، فألهب مشاعر الجميع.

وسط هذا كله.. كان حوارًا صامتًا يجري هناك.. تشبثت عينا "شهد" بعينيْ "طارق" كأن لحن أغنية "يا جارة الوادي" قد انساب بينهما دون الآخرين، وشَدَتْ فيروز:

وتعطلت لغة الكلام..

وخاطبت عَيْنَاي في لغة الهوى عيناك..

يا جارة الوادي طربت وعادني ما يشبه الأحلام من ذكراك..

مشاعر خاصة جدًّا تحتلني الآن.. مشاعر متداخلة بشكل ما لكنني لا أجدها متناقضة.. ثمة شيء يربط بينها ويجعلها متناغمةً.. منسجمةً، لذلك أتأملها بعمقٍ واستمتاعٍ، وأحاول رصدها وتحليلها.

أتحدث عن تجربة إنسانية فريدة.. هكذا أحسها، رغم أنها تتكرر مع غيري من النساء وفي أرجاء الأرض مئات - بل آلاف - المرات كل يوم.

فكرتها الأساسية أن تعيشَ لفترةٍ من الزمن، وأنت تحمل إنسانًا آخر داخلك، تأملها قليلًا، ستجدها بالفعل تجربة فريدة تدعو للتأمل، وربما إلى التفلسف.

إنني أعيش الآن تلك التجربة بكل تفاصيلها.. أراقب ما يحدث داخلي كأنني لستُ أنا، أراقب نفسي بنفسي، وألهث وراء تتبع ما يحدث من تطوراتٍ داخلي لهذا الكائن الذي أحمل..

أعيش مشاعر خَاصَّة جدًّا.. يملؤني الاندهاش، ويبلغ حد الانبهار وأنا أتأمل عملية الخلق، وحكمة التكوين.

أتابع تطور هذا المخلوق .. أراه بعين قلبي، فهو ليس في مجال رؤيتي البصريَّة حتى الآن.. سيظهر بعد قليلٍ.. سوف ينفتح الستار ويظهر على خشبة المسرح.. مسرح الحياة.. كائن جديد.. ذلك المختفي الآن بين أحشائي.

معجزة الخلق تتجسَّد داخلي.. تنبض.. أسمع دقاتها، وأرى علاماتها فيتملكني الذهول من قدرة الله، نطفة في حجم أقل من رأس دبوس تتكون في لحظة ربانية.. لحظة يصدر فيها القرار الأعلى بتصريح دخول إلى الدنيا لمخلوق لم يتشكل بعد.. نطفة متناهية الصغر.. لا ترى بالعين المجردة.. تحمل مئات الصفات التي سيظهر بها ذلك الكائن.. شكله.. لون عينيه.. لون بشرته.. درجة ذكائه.. مواهبه.. ملكاته.. الصفات الوراثية الجميلة والذميمة التي سيحملها من والديه، وغيرها عشرات من الملامح الظاهرية والباطنية التي سوف يولد بها وتنمو معه لتلخص معنى القدر.

أتابع سر الخلق.. أحاول أن أفهم.. أن أصل إلى الأسرار الإلهية والحكمة الكونية.. ألجأ إلى الكتب والأفلام الطبية التي ترصد مسيرة نمو الجنين في أحشاء أمه، وأحاول أن أفسِّر به ما أحسه ولا أراه.

تصادف "شهد" تلك الأوراق وهي تتصفَّح كراستها الزرقاء.. تلك السطور كتبتها منذ حوالي عشرين عامًا، عندما كانت حاملًا في "سارة".. تدمع عيناها وهي تتذكر تلك الأيام.. كانت مشحونةً خلالها بمشاعر الترقب والانتظار بلهفة، لقدوم طفلها الأول، وكثيرًا ما تخيلت شكلها.. كانت تجمع المجلات والكتب الخاصة بالأم والطفل، وتنتزع منها صور الأطفال الجميلة، ذوي الوجوه البريئة والعيون الناطقة، وتعلقها في الغرفة التي أعدتها لاستقبال أول مولود لها.

تضع "شهد" الكراسة في "شكمجية الأسرار"، وتشرد في تأمل أحوال "سارة" التي صارت الآن شابة على وشك التخرج في كلية الألسن.. ياه على الأيام.. هكذا مرت سريعة..

لماذا كرهتِني يا "سارة" ؟ لماذا تمردتِ على أمك التي تحبك أكثر من أي إنسان، إلا "سيف" قرة العين الذي لا أجد سواه يقف إلى جانبي، ويقدِّر مشاعري كإنسانة قبل أن أكون زوجة وأمًّا؟

لماذا تركتني واخترتِ الحياة مع "فاتن"؟ هل هي رغبة منكِ في إيلامي؟ لماذا يا "سارة" أعلنتِ الحرب عليَّ، وترفضين حتى محادثتي في الهاتف أو زيارتي من حين لآخر؟ لماذا؟

هل تتقبلين الانقلاب الذي أحدثه أبوكِ في حياتنا، بينما ترفضين رد الفعل الطبيعي من جانبي؟ أم أنكِ – أيتها الفتاة العصرية التكنولوجية – تعيشين بشخصيتين متناقضتين.. إحداهما تتابع الإنترنت، وتسمع محمد منير والشاب خالد ومايكل جاكسون، والأخرى تفكر بطريقة "سي السيد" وتفرض على زوجته "أمينة" أن ترضى وترضخ لكل طلبات ورغبات ونزوات زوجها؟ لماذا يا عم "نجيب" زرعت هذه الشخصية في وجدان المصريين، فأصبحت جزءًا لا يتجزأ من تراثهم؟ أم أنك كنت ترصد في ثلاثيتك الشهيرة "قصر الشوق" و"السكرية" و"بين القصرين" ما هو كائن بالفعل، وما يحكم حياتنا من ميراث اجتماعي قديم ومتوارث؟

هل تعتنقين فكر "سي السيد؟ في ثلاثية نجيب محفوظ يا "سارة"، وتقبلين أن أبقى في حياة أبيكِ مع ضُرَّة؟ هل تقبلين أنتِ ذلك عندما تتزوجين، وتبنين مع زوجك حياةً زوجيةً هادئةً، ثمرتها شابان جميلان؟ هل تقبلين أن يأتي بعد أكثر من ربع قرن على زواجكما، ويقول لكِ بطريقة غير مباشرة: شكرًا.. لقد أديتِ رسالتك على الوجه الأكمل.. والآن عليكِ أن

تتقاعدي كإنسانة وامرأة وزوجة، وأن تكتفي بممارسة دور الأم المقهورة المهزومة التي دهسها قطار الزمن؟

لماذا تتحاملين عليَّ يا ابنتي الحبيبة، رغم أنكِ تدركين كل ذلك، وأعلم أنك تحبينني، وكيف لا وأنا أحبك كل هذا الحب؟ هل أغضبكِ أنني رحلت عن بيتنا، أقصد بيت "أحمد"؟ هل ظننتِ أن هذا القرار ضمنيًّا يعني أنني قد تخليت عنكِ وعن "سيف"؟

كيف تفكرين هكذا يا "سارة"؟ إنكما جزء مني لا يمكن فصله عن حياتي.. كالقلب في الجسد.. هل سمعتِ أن إنسانًا ظل حيًّا بعد أن انتزعوا منه قلبه؟ تخيلي هذا الخيال العلمي أو الفانتازيا واضحكي.. إنسان بلا قلب.. بلا ذاكرة..

لماذا قسوتِ عليَّ إلى هذا الحد؟ إن حياتي الآن يا حبيبتي هي الحياة التي كنت أحلم بها منذ كنت شابةً صغيرةً مثلك.. كنت أحلم أن أعيش طبيعتي.. أطلق لأفكاري العنان، وأحرِّر ذاتي من عشرات القيود التي تكبلني.. عشت حياةً مثاليةً مع "أحمد" من وجهة نظر الآخرين، لكنني لم أكن سعيدة.. كنت أؤدي الدور بكل إخلاص والتزام وأمانةٍ.. دور الزوجة المحترمة المثقفة، والأم الحريصة على تربية أولادها كما ينبغي، وربما أكثر، لكنَّني لم أشعر يومًا أن الحاجز الزجاجي غير المرئي بيني وبين "أحمد" قد تهاوى.. كان دائمًا هناك يمنع التفاعل الطبيعي.. الكيمياء بيننا كانت معطَّلة في معظم أوقات حياتنا.

ربما أغضبتك علاقتي بـ"طارق".. أقرأ ذلك في عينيكِ المليئتين بالغيرة، طوال عمرك تغارين مني وتغارين عليَّ، لكنني يا حبيبتي إنسانة من حقها أن

تعيش.. أن تُـحِب وتُـحَب.. ليس هناك سن للتقاعد في الحب، هناك من يحب وهو في الستين أو السبعين، أو حتى في الثمانين.. لا تضحكي ولا تندهشي.. اقرئي رواية ماركيز جابريل جارثيا ماركيز **"الحب في زمن الكوليرا"**.. تلك الرواية التي جسدت قصة حب فريدة، امتدت بين انقطاع ووصال على مدى عشرات السنين، وفي النهاية يلتقي الحبيبان بعد أن تجاوز كلاهما الثمانين عامًا، وبعد أكثر من نصف القرن من الحب المترنِّح.

فالحب بين "فلورينتينو أريثا" و"فيرمينا داثا" ولد في شبابهما المبكر، لكن الظروف عاندته، ويبدو أنه ظل كائنًا كامنًا ينمو خفيًّا في ذاكرتيهما، حتى حانت لحظة الانفجار الكبرى، واللقاء الجامح الحقيقي من دم ولحم، أما الغريب فهو أن ذلك اللقاء الذي حدث فوق ظهر يخت في عرض البحر، ومارسا خلاله الحب لأول مرة في حياتهما، كان بين عجوزين أحالهما حبهما العبقري إلى كائنيْن محلِّقيْن، متجاهليْن عوامل الزمن، وتهالك الأعضاء البشرية، وكأن هذا الحب هو إكسير الحياة الذي يَضُخُّ في الشرايين، فتنتفخ بالحياة، وتتفجَّر بالمشاعر السحرية.

لا أزال أذكر هذه الفقرة ضمن فقراتٍ عديدةٍ كتبتها في كراستي الزرقاء من رواية **"الحب في زمن الكوليرا"**.. ها هي الكراسة، وها هي السطور:

"كانت فيرمينا داثا قد أعطت تعليماتها للجارسون بأن يتركها نائمة إلى أن تستيقظ من تلقاء نفسها، وحين استيقظت وجدت على الكومودينو مزهرية فيها زهرة بيضاء طازجة، ما تزال مضمَّخة بالندى، ومعها رسالة من فلورينتينو أريثا، مؤلَّفة من الصفحات التي استطاع كتابتها منذ

ودَّعها.. كانت رسالةً هادئةً، لا غرض لها سوى التعبير عن الحالة المعنوية التي عاشها منذ الليلة الماضية، وكانت شديدة الغنائية كرسائله الأخرى، وخطابية مثلها جميعًا، لكنها مستندةٌ إلى الواقع.

قرأتها فيرمينا داثا ببعض الخجل من نفسها لقفزات قلبها المكشوفة، وكانت الرسالة تنتهي بالطلب إليها أن تخبر الجارسون حين تكون جاهزةً، لأن القبطان ينتظرهما في مركز القيادة، ليشرح لهما سير العمل في السفينة.

في الساعة الحادية عشرة كانت جاهزةً، مستحمةً منتعشةً بالصابون الذي له رائحة أزهار، ومرتدية فستان أرملة رمادي اللون وشديد البساطة، موفورة النشاط بعد هيجان الليلة الماضية.. طلبت فطورًا بسيطًا من الجارسون ، الذي يرتدي ملابس بيضاء ناصعة ويعمل في خدمة القبطان شخصيًّا، لكنها لم تُرْسِلْ إليهم كي يحضروا لمرافقتها.. صعدت وحدها مبهورة بالسماء الصافية، ووجدت فلورينتينو أريثا يتحدث إلى القبطان في مركز القيادة.. بدا لها مختلفًا بالفعل، ليس لأنها رأته بعينين أخريين حينئذ، وإنما لأنه كان مختلفًا بالفعل، فبدلًا من الملابس الجنائزية التي ارتداها طوال حياته، كان ينتعل حذاءً أبيض ويرتدي بنطالًا وقميصًا من الكتان، مفتوحًا عند العنق وأكمامه قصيرة، وعلى جيبه الذي فوق الصدر نُقِشت الحروف الأولى من اسمه، وكان يعتمر قبعة اسكتلندية، بيضاء اللون أيضًا، ويضع نظارةً ذات عدسات قاتمة فوق نظارة قصر النظر الأزلية، ومما لا شك فيه أن كل ذلك كان يستخدم للمرة الأولى، وأنه اشتراه من أجل الرحلة، باستثناء حزام الجلد البني العتيق، والذي لفت انتباه فيرمينا داثا من النظرة الأولى، وكأنه ذبابة في طبق الحساء.

حين رأته على هذه الحالة، مرتديًا ملابس متميزةً من أجلها، لم تستطع منع تورد ناري من الصعود إلى وجنتيها، وانبهرت عند مصافحته، وانبهر هو أكثر من انبهارها، وإدراكهما بأنهما يتصرفان كخطيبين، زاد من انبهارهما ووعيهما بأنهما منبهران، إلى الحد الذي جعل القبطان سامارتيانو يلاحظ ذلك بارتعاشة حب، وأخرجهما من الحرج بأن شرح لهما مهمات القيادة والآلية العامة للسفينة.. خلال ساعتين كانوا يبحرون ببطء شديد في نهر بلا ضفاف".

هذه هي سطوري التي انتزعتها من رواية ماركيز **"الحب في زمن الكوليرا"**، كذلك انتزعت جملته الشهيرة التي قالها ذات يوم يصف بها تلك الرواية: إنها **"رواية حب.. وهذا الحب في كل زمان وفي كل مكان، لكنه يشتد كثافةً كلما اقترب من الموت"**.

* * *

كوني عادلةٌ معي يا ابنتي الحبيبة إذن !.. كوني منصفةً يا "سارة" مع أمك التي أحبتك منذ كنتِ صورةً مرسومةً في خيالها.. تقبلي الحياة كما هي ، ولا تبحثي عن الكمال، فالكمال لله وحده، ونحن بشر نحسُّ ونخطئ.. نحبُّ ونكره.

هل تستكثرين عليَّ أن أعيش قصة حب حقيقية؟ هل تعتقدين أن المشاعر الإنسانية لها عُمْر، وأنني - وأنا في الخمسين من عمري - من الصعب أن أحب؟ ستصلين يومًا إلى ذلك المنعطف في حياتك، وستدركين وقتها كم يحتاج الإنسان إلى الحب في كل زمان ومكان.

كنت أقرأ في عينيك منذ سنوات عديدة تساؤلات مدهشة مثل: لماذا تتزينين يا أمي؟ ألن تكُفِّي عن محاولة الظهور في صورة امرأة فاتنة شابة؟ كنت أقرأ ذلك في عينيكِ وأحزن أحيانًا، وأقدِّر مشاعركِ أحيانًا أخرى، فأنتِ تعتقدين - ويا له من اعتقاد - أن المرأة يجب أن تتوقف عن الاهتمام بنفسها وأناقتها ورشاقتها عندما تكبر، وتصبح أمًّا لشاب وشابة، مثلكِ أنتِ وأخيكِ.

منتهى الظلم يا قرة العين ومنتهى الحماقة.. المرأة إنسان، والإنسان من حقِّه أن يُرضِي نفسه أولًا حتى يستطيع أن يُعطي الآخرين.. فاقد الشيء لا يعطيه يا حبيبتي.. ومشاعر امرأة مهزومة.. مكسورة الجناح، لا تجعل الأم مصدرًا للقوة أو منبعًا للإلهام والابتكار في حياة أبنائها.

الأم القوية الملهِمة ينبغي أن تكون إنسانةً متحققةً تقدِّر نفسها وتحبها، وتعتزُّ بما وهبها الله من جمال الشكل والعقل.. اهتمامي بنفسي يا "سارة" ليس ضدك، ولسنا في مجال تنافس.. أعرف أن أفكار الصغيرات تتجه إلى ذلك.. أنا كنت - يومًا - مثلك أغار من أمي عندما أراها جميلةً ومثيرةً، لكنني عندما كبرت أدركت أن هذا من حقها ومن حق كل إنسانة، حتى لو كانت أمًّا لعشرة أبناء..

تجلس "سارة" لتحكي لوالدها "أحمد" تفاصيل الرحلة التي تنظمها جماعة "بُكرة" بالكلية للأقصر وأسوان.. ينصت "أحمد" باهتمام لكلام ابنته، بينما يكمل إفطاره ويشرب قهوته الصباحية في حديقة ڤيلته بالشيخ زايد.

المكان الأثير نفسه الذي طالما أحبته "شهد".. كانت تجلس فيه كل صباح تشرب قهوتها وتتناول الكرواسون، ففي هذا الركن من حديقة الڤيلا وضعت "شهد" بصمتها الخاصة: أريكة متحركة في الضلع المواجه لطقم المقاعد والمنضدة "البامبو" سقيفة من الخوص والخيرزان مصمَّمة بذوقٍ عالٍ، تحتوي الركن بظل حنون، وتجعل منه موطنًا للنسمات الباردة المنعشة الجميلة.

تخترق "فاتن" الجلسة الحميمة التي جمعت بين الأب وابنته بجملة فجة، وصوت يخاصم الحياء، ونظرة غيرة تخترق الأجساد:

- إيه يا حبيبتي.. إنت ماوراكيش جامعة ولا إيه؟

تنظر إليها "سارة" في حنق دون أن تنبس بكلمة، ثم تنظر إلى والدها.. يلاحظ "أحمد" هذا الاحتقان الواضح بينهما، فيحاول تهدئة الموقف بذكاء.. قائلًا:

- "سارة" بتحكي لي عن رحلة مع الجامعة ..إحنا فعلًا اتأخرنا.. يلا يا "سارة" علشان أوصلك الكلية في طريقي.

تزداد الغيرة اشتعالًا في عينيْ "فاتن" فتنطلق مدافعها اللفظية السوقية.. تحرك يديها بطريقة بذيئة، وتقول:

- آه بقى ما أنا بنت البطة السوداء، أقعد لوحدي طول النهار في الڤيلا أكلم نفسي.. أو أكلم الحيطان.

يحاول "أحمد" تهدئتها.. بينما يشعر بالحرج الشديد في وجود ابنته "سارة".. يقول بصوتٍ متقطعٍ من شدة الارتباك:

- اهدي بس يا "فاتن".. آخر الأسبوع ده حنروح "فايد" وحنقضي هناك يومين نغيّر جو، وإن شاء الله تنبسطي هناك خالص.

تهتز أجزاء جسدها كله بحركة عصبية انفعالية.. ثم تقول:

- بصراحة كده أنا مخنوقة.. أقعد طول النهار لوحدي زي قرد قطع.. في الصحراء اللي مفيهاش بني آدمين دي.. أنا طول عمري أحب الناس.. أحب الدوشة.. لكن الهدوء بتاعكو ده.. موت.. موت والله العظيم.

تشعر "سارة" بالنشوة والشماتة في زوجة أبيها، فهاهي تختنق، وتكاد تصرخ طالبةً الخلاص من هذا المكان الأنيق، البارد كما تحسه هي وتشعر به.. لقد خاصمت أمها لكنها في قرارة نفسها تحبها، وتفتقدها بشدة، وتحلم باليوم الذي تعود فيه المياه إلى مجاريها.. وترى أمها "شهد" تضيء الڤيلا بنورها وروحها.

تحاول بخبثٍ ودهاءٍ أن تزيد من اشتعال "فاتن".. فتقول:

- وليه متسليش نفسك يا طنط بالقراءة، عندنا مكتبة كبيرة أوي، مامي كانت دايمًا بتقضي ساعات طويلة من يومها بين كتبها.

تنفجر "فاتن" بعدما تفقد قدرتها على التحكُّم في نفسها، فتنهال على "سارة" بوابل من الردح السوقي المبتذل:

- خلي القراية والثقافة ليكي انتِ يا حبة عيني، وللمحروسة أمك.. ما هي القراية دي اللي خلت أبوكي يزهق ويدور على ست.. أنثى يعنى.. مش راجل زيها زيه.

تجلجل ضحكات "سارة" المتتالية بصورةٍ هيستيريةٍ، كأنها تشاهد مشهدًا كوميديًّا مضحكًا.. وهي ترى حركات جسد زوجة أبيها التي تفوح بالابتذال.. تضحك "سارة" وتضحك.. ومع كل ضحكة تلقي إلى نيران "فاتن" المشتعلة بقطع من الوقود تزداد معها نيران غضبها اشتعالًا.

يقف "أحمد" حائرًا.. صامتًا.. مدهوشًا من تطور الموقف بهذه السرعة وهذه الصورة.. وفجأة تخترق المشهد صفعة مدوية، يرتطم كف يد "فاتن" بوجه "سارة" بشدة.. ترتج الأرض تحت أقدام الجميع.. كأنه زلزال هادر أطاح بهم، وباللحظة التي احتواها الغيم، تتوقف ضحكات "سارة" الهيستيرية.. تمتلئ عيناها بالدموع الصامتة.. وفجأة تقع على الأرض مغشيًا عليها.

* * *

كان ضوء الفجر يتهادى برشاقة مخترقًا ظلام الليل، عندما فتحت "سارة" عينيها بصعوبة، تحاول أن تتبين الأمر.. أين هي؟ ماذا حدث؟ ما هذا السرير الذي تنام عليه الآن.. إنه ليس سريرها، وهذه النافذة المسدل عليها ستارة داكنة.. إنها ليست ستارة نافذتها الوردية المطعمة برسوم دقيقة من اللون نفسه.. أين هي؟

تنتبه إلى صوت باب الغرفة يُفتح، وتدخل منه ممرضة في الثياب المعتادة لهن.. تسرع إليها عندما تلمح عينيها مفتوحتين.. تقترب منها، وتمسك كفها الصغيرة بحنان.. وتقول:

- حمد الله على السلامة يا آنسة "سارة".. أخبارك إيه دلوقتي؟

بدهشةٍ شديدةٍ.. وذهول تسأل "سارة" الممرضة:

- أنا فين؟ إيه اللي حصل لي؟ أنا عملت حادثة؟ إيه اللي حصل.. أرجوكِ.. قولي لي.

تربت الممرضة "هدى" على يدها محاولة طمأنتها.. وتقول:

- انتِ كُنْتِ تعبانة شوية، ودلوقتي الحمد لله بقيتِ كويسة خالص، والدكتور "أحمد" بنفسه حيدخلك دلوقتي.. وحيكلمك بنفسه.

- الدكتور "أحمد خيري"؟ تقصدي بابا؟

- لا.. الدكتور أحمد عكاشة.. انتِ يا آنسة في المنتجع الطبي للدكتور أحمد عكاشة.

- أنا هنا من إمتى؟

- من 3 أيام.

- وفين ماما؟ ماما عرفت؟

- مامتك مدام "شهد" ما سبتكيش لحظة واحدة، لكن الدكاترة منعوها من البقاء في أوضتك.. هي جنبك هنا في أوضة تانية حسب أوامر الدكاترة.

بشغفٍ ولهفةٍ تسأل الممرضة:

- ممكن أشوفها.. نفسي أشوفها ولو دقيقة واحدة.

تستأذن "هدى" في الخروج لتخبر الدكتور "أحمد عكاشة" بطلبات "سارة"، وتبلغه أنها أفاقت الآن، وبدأت تتكلم بعد حالة الصمت والانهيار الحاد التي أتت به منذ عدة أيام.

يدخل الدكتور "أحمد عكاشة".. ومعه مجموعة من الأطباء الشبان والممرضات.. يشرق وجهه بابتسامة عريضة.. نظرة نافذة من عينيه المشعتين بذكاء واضح تسقط على عينيْ "سارة".. ترتبك قليلًا، ثم تبدأ في الكلام:

- كنت بشوفك دايمًا يا دكتور في التليفزيون، وبشوف صورتك في الجرايد.. لكن عمري ما تصورت إني هشوفك وجهًا لوجه.

يداعبها بلطف وخفة ظل:

- يعني إيه؟ أمشي؟ مش عايزة تشوفيني وجهًا لوجه يا "سارة"؟ بقى ده كلام.

يربت على كتفها ويقول:

- عايزك ترتاحي خالص دلوقتي.. وهعدي عليكي بكرة.. أنا مش عايزك تتعبي دلوقتي في الكلام.

تبادره بطلب عاجل:

- طب ممكن أشوف ماما بس يا دكتور؟

يفكر الدكتور "عكاشة" قبل أن يتخذ قراره الطبي بعيدًا عن العواطف.. القرار الذي لا يؤثر سلبيًّا على سير العلاج، وتحسن حالة مريضته الشابة الجميلة "سارة".

ينظر إليها مليًّا، ثم يصدر قراره كأنه حكم من قاضٍ يحدد مصير إنسان بكلمة.. يقول:

- المفروض إنك متشوفيهاش دلوقتي يا "سارة".. ده الرأي الطبي علشان إحنا مش عايزين انفعال عاطفي شديد اليومين دول.. انتِ اتعرضتِ لانهيار عصبي، ويا دوبك عدينا المرحلة الصعبة.. مش عايزين انفعال.. تقدري تشوفي ماما.. بس من غير كلام.. أقصد من غير عتاب أو حساب.. مش وقته.. ممكن تشبعي منها زي ما انتِ عايزة لكن ماتتكلموش في المشكلة الحالية.. والأفضل إنكم متتكلموش خالص.. اتفقنا؟

يتهلَّل وجه "سارة" وتقول:

- اتفقنا يا دكتور "أحمد".. متشكرة قوي.. المهم أشوف ماما وأحضنها.. حضنها وحشني قوي يا دكتور.

يشير الدكتور "عكاشة" إلى الممرضة "هدى"، ويطلب منها أن تذهب إلى غرفة مدام "شهد"، وتصطحبها إلى غرفة "سارة".

كان الدكتور "أحمد" قد تحدث مع "شهد" قبل قدومه إلى غرفة "سارة"، واتفق معها على الكلام نفسه.. فقد كان يتوقع طلب "سارة"، وتلهفها على

رؤية أمها بعد إفاقتها من النوم العميق، وتناولها عقاقير مهدئة ومطمئنة عديدة إثر إصابتها بانهيار عصبي حاد.

تدخل "شهد" على "سارة" تحمل باقة من الورد الأبيض تضعها بين يديها، فتسرع "سارة" بوضعها على الكوميدينو الملاصق للسرير.. وترتمي في حضن أمها كطفل تاه في الزحام.. وفجأة التقى بأمه.

لم تتكلم "سارة".. ولم تتكلم "شهد".. لكن حوارهما الصامت وأحضانهما العميقة.. والدموع الهادئة التي انسابت من مقلتيهما كانت أبلغ من أي كلام.

فقط كلمة "أحبك يا أمي" هي التي كانت تكررها "سارة" من حين إلى آخر، بينما تتعلق عيناها بـ"شهد" كأنها تخشى أن تتركها وحدها، وتغادر المكان أو الغرفة.

أما عينا "سارة" فقد كانتا تقولان الكثير:

- سامحيني يا أمي.. لقد ظلمتكِ.. لقد قسوت عليكِ.. لم أمنحكِ الحق في الحياة بالشكل الذي تحبينه.. وبالطريقة التي تختارينها.. كم كنتِ قاسيةً.. كم كنت حمقاء وأنا أعلن عليك الحرب.. والعصيان.

أسابيع ثلاثة انقضت على "سـارة"، وهي تعالَج في المنتجع الطبي للدكتور "أحمد عكاشة" بالقاهرة الجديدة.. صارت الآن أفضل مما كانت عليه قبل الواقعة التي قلبت كيانها.. كانت تلك الأسابيع الثلاثة ضرورة لكي تعود إلى نفسها، أو بالأحرى لأن تواجه نفسها بصراحة ووضوح.

فهل كانت صفعة "فاتن" هي السبب في ذلك الانقلاب الكامل الذي شهدته حياة "سـارة" بعد ذلك؟ هل أفاقتها الصفعة لتتخلـص من نزق الاندفاع وحماقة التمرد الأجوف الذي مارسته على أحب الناس إليها أمها"شهد"؟

لقد رفضت "سارة" الرجوع إلى ڤيلا الشيخ زايد.. عندما جاء والدها ليصطحبها إلى هناك بعد انتهاء فترة علاجها.. وأصرت على الذهاب مع "شهد" إلى بيت السيدة زينب.

ورغم القرار الذي اتخذه الدكتور "أحمد خيري" بالطلاق من "فاتن" بعد أن تعدَّت على ابنته "سارة" بالضرب، وتسببت لها في انهيار عصبي، فإن قراره هذا لم يجعل "سارة" ولا "شهد" تعدلان عن موقفهما الذي اتخذاه بصورة نهائية وهو: الإقامة في "بيت العيلة".. وعدم الرجوع إلى ڤيلا الشيخ زايد.

في البداية كانت تتحسَّس خطاها في ذلك العالم الجديد عليها تمامًا.. كانت كالجنين مرتبطة بأمها ارتباطًا عضويًّا، تكاد لا تفارقها بالليل أو النهار، فقط عندما تذهب إلى الجامعة، وحتى في هذا المشوار تطلب من"شهد" أن توصلها إلى الجامعة، وتأتي لتأخذها إلى البيت بعد انتهاء اليوم الدراسي.

انقلب التمرد العنيف داخلها إلى تعلُّق مريض وغيرة طفولية.. تنطلق في صورة بكاء وحزن بلا سبب.. إذا ما اهتمت "شهد" بأي إنسان آخر غيرها.. خصوصًا "ليلى".. تفهمت "ليلى" الموقف، فقلَّلت قدر الإمكان من الاقتراب من "شهد" مثلما كانت قبل مجئ "سارة" ودفعتها حساسيتها المفرطة لأن تطلب من أبيها "طارق" للمرة الأولى الانتقال للعيش معه في بيته بالدقي.

أما "سيف" فكان يسبح في محيط من المشاعر المتناقضة في هذه الفترة.. كان سعيدًا بانضمام شقيقته الوحيدة التي يحبها إلى موطنه الجديد "بيت العيلة".. ولم شمل الأسرة . لكنه كان حزينًا بسبب تلك العلاقة المتشابكة المتداخلة الخيوط التي تربط بين "سارة" و"شهد" من ناحية، وبين "ليلى" و"شهد" من ناحية أخرى.. إن "ليلى" تجد في "شهد" الأم الثانية لها هنا في بلدها مصر.. الأم التي احتضنتها، وهدَّأت من مخاوفها وهواجسها ومنحتها دفء العيلة وإحساس الوطن.

و"شهد" تحب "ليلى".. تشعر بها وتتعاطف تمامًا معها.. وترغب في أن تمنحها بعض الأمان المفقود في دنياها القاسية.

أما"سارة" فهي تغار على "شهد" من أي إنسان يقترب منها، وينازعها أية مساحة في قلب أمها، إذن ما الحل؟

هذا هو السؤال الذي ظل "سيف" يبحث له عن حل.. عن تسوية ما.. أسلوب ذكي يجمع تلك الخيوط الثلاثة في شبكة واحدة متحابة.. هل هذا حلم يراوده، أم أنه هدف يمكن تحقيقه بشيء من الصبر والدأب والإصرار؟ ما الشيء المشترك الذي يمكن أن يجمع بين الفتاتين؟

آه.. حبهما للـ"Modeling" وتصاميم الفساتين.. إنها الهواية التي عشقتها أختي "سارة" منذ طفولتها، ثم وجدت "ليلى" تحدثني عن تعلقها بها أيضًا منذ كانت طفلةً صغيرةً حتَّى الآن.

فلتكن هذه نقطة البداية أو الخيط الرفيع الذي يمكن أن أنسج منه علاقةً جديدةً تجمع الفتاتين وتقربهما، وتسقط الحواجز النفسية السميكة القائمة بينهما.

كيف تفعل ذلك يا "سيف" كيف تذيب الثلج المتجمد على جدار القلب.. وفوق إحساس كل منهما تجاه الأخرى؟

هيه.. هيه.. هيه.. إيه يا أبو الأفكار.. طب فكرة واحدة يا "سيف" فين أفكارك الحلوة يا أبو السيوف كلها؟

آه.. طنط "رجاء" هي المفتاح، هي الشخص المناسب والمطلوب لتنفيذ الخطة العبقرية بتاعتك يا "سيف".

- أنا فاكر أتيليه "The pretty bride".. فاكر الديفيليه اللي كانت طنط "رجاء" بتعزم ماما عليه ؟ كان فيه موديلات جديدة.. جميلة.. وكانت طنط "رجاء" تقف في بداية عرض الأزياء وتحيي الجمهور، وتعلن أن كل الفساتين التي سيراها الحضور من تصميمها، وأنها خلطة مبتكرة تجمع

بين أحدث "موضات" وموديلات أكبر بيوت الأزياء العالمية واللمسات الشرقية المميزة التي تناسب نساءنا، وفتياتنا الجميلات.

إذن - يا "سيف" - فالمفتاح عند طنط "رجاء"، لكن كيف أسأل أمي عنها؟ وبماذا أبرر مثلًا طلبي لرقم تليفونها؟ هل أقول لـ"شهد" إن إحدى زميلاتي تريد تليفونها لأنها ترغب في شراء فساتين من تصميمها؟ لكن أمي تعرف كل زميلاتي وصديقاتي.. أنا تقريبًا أحكي لها تفاصيل حياتي.. إنها أقرب صديقة لي.

- ما رأيك أن تبحث عن رقم التليفون في الفهرس الموجود على ترابيزة التليفون، ومدوَّن به كل التليفونات التي تطلبها أمي.. هذه فكرة براقة.. لماذا لا أجرِّب؟

- الله.. الله عليك يا أبو السيوف، آهي نمرة موبايل طنط "رجاء" وكمان الرقم الأرضي لأتيليه "The pretty bride" طب وبعدين؟ نتصل ونجرب.

- آلو.. أيوه أنا كنت بسأل عن أقرب ديفيليه لمدام "رجاء".. وكمان أحب أسيب لحضرتك الإيميل الخاص بي علشان تبعتولي أي أخبار خاصة بكم.. أصل خطيبتي بتحب تصميمات مدام "رجاء" قوي.

ترد عاملة التليفون بأدب وود:

- تحت أمرك يا فندم.. حالًا هبعت لسيادتك كل الأنشطة اللي عندنا.. نتمنى نشوفك في الأتيليه.. أو في المركز.

- مركز؟ مركز إيه؟

- مركز الورش الفنية لتعليم الهواة فن الـ"Modeling" وتصميم الأزياء.. والتطريز.. والخياطة.

تتسع حدقتا " سيف" دهشةً وفرحًا ويقول لها بحماس:

- شكرًا.. ألف شكر يا آنسة.. حضرتك اسمك إيه؟

- "مروة".

- ألف شكر يا آنسة "مروة".. أرجوكِ اديني حالًا عنوان المركز.

حرقنا العلم.. حرقنا العلم الإسرائيلي يا "دادي".

قالتها "ليلى" بفرحةٍ ونشوةٍ بالغتين.. رفع "طارق" رأسه عن كتاب كان يقرؤه.. رواية "واحة الغروب" لـ"بهاء طاهر".. ابتسم وهو يرى "ليلى" ابنته تعيش لحظة إثارة فريدة.. حكت له تفاصيل ما حدث في الجامعة الأمريكية صباح ذلك اليوم بحماس وقوة.. تتدافع الكلمات من فمها.. تتسابق.. يتأمل "طارق" ابنته "ليلى" وهي تتكلم، ويقول لنفسه:

- ابنة الثوري.. ثورية.

يتذكر نفسه وهو طالب في الجامعة.. مظاهرات الطلبة.. اعتقال المتظاهرين.. وكان واحدًا منهم.. تلك الشعلة المتقدة في قلوب الشباب بحب الوطن، والروح الثورية للدفاع عنه، لكن - وهنا توقف قليلًا - "ليلى" وُلدت وكبرت في "لندن"، وتحمل في شرايينها دماء وطنين مختلفين، وفي قلبها خريطة لبلدين: مصر.. وبريطانيا العظمى.. الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، والتي استعمرت وطنها الأول سبعين عامًا متصلة، يالها من مفارقة.

إذن من أين أتيت يا عفريتة بكل هذه الثورية، وكل هذا الحماس لمصر والقضية الفلسطينية، التي هي بالأساس قضية أمن قومي لمصر؟ من أين أيتها الأوروبية الرومانسية الحالمة، بكل هذا الحماس في حب مصر؟

التقط "طارق" تلك الحماسة التي أشعلها موقف حرق العلم الإسرائيلي احتجاجًا وتعبيرًا عن الرفض من الطلبة المصريين للمجازر التي تدور على أرض فلسطين، والاعتداء على مدنيين أبرياء في ساحة المسجد الأقصى، وقتل شيوخ وأطفال ونساء.

وطلب منها أن تحكي لرواد "بيت العيلة" الليلة تفاصيل ما حدث..

- لكن يا بابا..

قالتها مراوغة، فهي لا تحب أن تكون في المركز.. تشارك نعم.. تستمع نعم.. لكنها لا ترغب في أن تكون مركز الاهتمام والانتباه.. والكل يستمع إليها.. وينصت..

- مفيش لكن.. هتحكي لنا عن حرق العلم الإسرائيلي في عقر دار الأمريكان في مصر.. وأنا هكمل الحكاية، وأحكي لكم عن مذبحة صبرا وشاتيلا..

واستطرد:

- عندي كلام كتير عايز أقوله.. عايز أتكلم النهاردة يا "ليلى".. عايز أقول لك ولشباب "بيت العيلة" كلام كتير أوي مايعرفوهوش.. ولازم يعرفوه.

أنصتت "ليلى" إلى والدها بعدما استطاع أن يجذب تفكيرها واهتمامها إلى ما يقول كعادته، وهنا وافقت على أن تحكي حكايتها، بشرط أن يكمل حكاياته وذكرياته المثيرة التي ينتظرها منه مساء كل خميس شباب "بيت العيلة".

إنه في عيونهم "جيفارا الجديد".. المثل المكتمل للرجل الذي يريدون أن يكونوه.. هذا بالنسبة للشباب، أما الفتيات فهو صورة من فارس الأحلام الذي يداعب خيالهن.

* * *

- القهوة يا "شهد".. فين قهوتي؟ واللا أقول لك.. هقوم أنا أعملها بنفسي..

أسرعت "شهد" حاملةً صينيةَ القهوة المميزة.. كوب الماء المثلج.. الكنكة النحاسية اللامعة.. الفنجان الذي يحبه "طارق" والمخصص له وحده، مرسوم عليه زهرة الأوركيد.

ابتسم "طارق" وهو يتأملها بحب وإعجاب.. تتنقل بينهما عيون الفتيات والشباب، كأنها ترصد موجات العشق المتسربة منه إليها وبالعكس.. يبتسم الجميع إلا "سارة"، كأنهم جميعًا يباركون هذا الحب الناضج، المعجون بالشجن والأسى.. الفرح والحزن والرغبة بالتمسك بأهداب الحياة. إلا هي..

بدأ "طارق" في الكلام بعدما حكت "ليلى" تفاصيل يومها المثير، وحرق العلم الإسرائيلي بأيدي الطلبة المصريين في الجامعة الأمريكية.. تلك الحكاية التي أثارت الشباب وملأتهم حماسًا وإعجابًا بزملائهم الذين يدرسون في جامعة الأغنياء.

وتناثرت التعليقات.. قالت "علا":

- كنت أظنهم بعيدًا عنا.. خواجات يعني.. لا يهمهم فلسطين ولا يحزنون، فعلًا براڤو عليهم.. دول غيَّروا رأيي فيهم.. دول فعلًا يستحقوا كل الاحترام.

ويقول "نادر":

- أنا أعرف الشاب اللي ولع النار في العلم.. ده صاحبي "محمد حسن"، وبيلعب معايا اسكواش في النادي.

* * *

يتابع "طارق" تعليقات الشباب، وينصت إليهم بينما يرتشف قهوته ذات الرائحة الخاصة.. قهوة "شهد" لها مذاق مختلف، ورائحة مختلفة تنعش المسام، وتفتح الشهية للكلام والسهر.

يمد يده ليلتقط كتاب "ذاكرة النسيان" لمحمود درويش الذي كَتَبَهُ في أعقاب الغزو الإسرائيلي الوحشي للبنان عام 1982، ومذبحة صبرا وشاتيلا.

يفتح الكتاب على صفحة معينة ، كان قد وضع عندها فاصلًا، وبدأ يقرأ سطور درويش التي أعجبته - ولا تزال - فهذه عادته عندما يقرأ لكاتب يحبه، يضع علامات وفواصل وخطوطًا بقلم رصاص حاد السن جدًّا، تحت سطور بعينها حتى يعود إليها من حين إلى آخر، ويعود إلى الكتاب.

"أريد رائحة القهوة.. أريد هدنة لمدة خمس دقائق من أجل القهوة.. لم يعد لي من طلب شخصي غير إعداد فنجان قهوة.. بهذا الهوس حددت

مهمتي وهدفي، توثبت حواسي كلها في نداء واحد واشرأب عطشي نحو غاية واحدة: القهوة.

والقهوة، لمن أدمنها مثلي، مفتاح النهار، أن تصنعها بيديك، لا أن تأتيك على طبق، لأن حامل الطبق هو حامل الكلام، والقهوة الأولى يفسدها الكلام الأول لأنها عذراء.. الصباح الصامت.. الفجر.. أعني فجري، نقيض الكلام ورائحة القهوة تتشرب الأصوات، ولو كانت تحية رقيقة مثل "صباح الخير"، وتفسد.

لذا، فإن القهوة هي هذا الصمت الصباحي.. الباكر.. المتأني.. والوحيد الذي تقف فيه وحدك، مع ماء تختاره بكسل وعزلة، في سلام مبتكر مع النفس والأشياء، وتسكبه على مهل في إناء نحاسي صغير داكن وسري اللمعان، أصفر مائل إلى البني، ثم تضعه على نار خفيفة.. آه لو كانت نار الحطب".

يقرأ "طارق" سطور درويش باندماج كامل.. بحب للحرف والكلمة، بذوبان في المعنى، وما وراء المعنى.

يقلِّب في الكتاب بعدما رشف رشفة أخرى من القهوة، ويتوقف عند صفحة أخرى، ومقطع آخر من نثر محمود درويش الشعري الآسر، في كتابه الذي أراد من خلاله أن يسجِّل ذلك اليوم في الذاكرة الفلسطينية، والعربية والإنسانية.. ما يجب ألا يمحوه النسيان.

يقرأ "طارق" بإحساس عميق وصوت رخيم يتسرب إلى الآخرين، فيسود المكان هالة من الانبهار والفخار، يرتفع صوته قائلًا:

"من قال إن الماء لا لون له ولا طعم ولا رائحة؟ للماء لون يتفتَّح في انفتاح العطش.. للماء لون أصوات العصافير الدوري خاصة ، العصافير التي لا تكترث بهذه الحرب القادمة من البحر مادام فضاؤها سالمًا، وللماء طعم الماء، ورائحة هي رائحة الهواء القادم، بعد الظهيرة، من حقل يموج بسنابل القمح الممتلئة في امتداد متقطع الضوء كبقع الضوء المخطوفة التي يتركها وراء توتر جناح الدوري الصغير، وهو يطير طيرانًا واطئًا على حقل، وليس كل ما يطير طائرة.. ولعل أسوأ الكلمات العربية هو أن "الطائرة" تأنيث "الطائر".. الطيور تواصل غناءها وتثبِّت أصواتها وسط هدير المدافع البحرية، ومن قال إن الماء لا طعم له ولا لون ولا رائحة؟ ومن قال إن هذه الطائرة هي تأنيث هذا الطائر؟"

– الله عليك يا محمود يا درويش.. كان ينزف شعرًا.. جراح قلبه لم تتوقف في شعره، ولم تتوقف في حياته ، حتى الزمن الأخير.

تسأل "هالة" بتردد:

– أكان شاعرًا فلسطينيًّا؟

يجيبها "طارق":

– نعم يا "هالة" كان شاعرًا عفيًّا.. شاعر له قامته وعنفوانه.

وهنا تندفع "ليلى" قائلة: "الآن.. احكِ لنا عن صبرا وشاتيلا.. ألم تقل سأحكي؟ إذن احكِ.. وكلنا آذان مصغية.

يعود "طارق" إلى الخلف، مستندًا بظهره إلى مسند الأريكة ذات الطراز العربي المغربي، يشعل سيجارة ويبدأ في استدعاء الذكريات، ثم يقول بتأثر:

- كان ذلك عام 1982، في يونيو الذي يسميه إخواننا العرب "حزيران".. وقتها قررت إسرائيل غزو لبنان لتصفية معاقل المقاومة الفلسطينية الرابضة هناك في جنوب لبنان.

ويشرد ببصره كأنه يمد عينيه إلى فضاء الذكرى، ويقول بأسى:

- للأسف أطراف عربية عديدة تآمرت على لبنان، وعقدت اتفاقيات سرية مع إسرائيل تسهل لها إتمام مهمتها في لبنان ؛ للقضاء على منظمة التحرير الفلسطينية التي كانت - ولا تزال - تمثل لها شوكة في الحلق ، يتمنون انتزاعها ثم التخلُّص نهائيًا منها.

- كان سفيرهم في المملكة المتحدة "شلومر أرجوف" قد تم اغتياله على يد منظمة أبي نضال، وفي يوم أسود هو يوم 5 من يونيو عام 1982 بدأت إسرائيل قصفها الجوي بالمدفعية الثقيلة على مدينة صيدا وقرى النبطية والدامور.

تقاطعه "ريهام" بانفعال شديد:

- لماذا؟ كيف؟ كيف يسمحون لأنفسهم بكل هذا الخروج على المواثيق الدولية والقانون الدولي وحقوق الإنسان؟

يرد "طارق" متهكمًا وقال:

- حقوق إنسان؟ هل يعرف الصهاينة معنى حقوق الإنسان؟ إنهم إرهابيون حقيقيون، وإذا كان بوش "الابن" يقول سأقضي على الإرهاب في العالم فقد كان عليه أن يقضي على إرهاب إسرائيل أولًا، لأنه منبع الإرهاب في

العالم، وكل العمليات الفدائية التي يقوم بها الفلسطينيون ويسمونها في إسرائيل "إرهابية" ما هي إلا نتيجة ورد فعل لما يقومون به من مجازر إنسانية وبلطجة سياسية.

تقول "شهد":

- احكِ لنا يا "طارق" عن صبرا وشاتيلا.. تلك المجزرة الإسرائيلية الشهيرة.

تلمع عينا "طارق" بالدموع ، وهو يتذكر أحداث ما جرى في ذلك اليوم، ثم يقول:

- كان ذلك في مساء 16 من سبتمبر عام 1982، بعد أكثر من ثلاثة أشهر على غزو إسرائيل الوحشي للبنان.. حاصرت القوات الإسرائيلية مخيميْ "صبرا" و"شاتيلا" للاجئين الفلسطينيين، واقتحم جنودهم تلك المخيمات التي كان يعيش فيها مدنيون، بحجة أنهم يبحثون عن مقاتلين فلسطينيين، وفي هذه المذبحة قُتِل أكثر من ثلاثة آلاف مدني أعزل، بالرغم من تعهدات الرئيس الأمريكي في ذلك الوقت رونالد ريجان ، بحماية المدنيين الفلسطينيين بعد خروج المقاتلين الفلسطينيين من لبنان.

تعلق "ندى" على الحكاية بأسى، وتقول:

- أنا أكره أمريكا.. أكره التعصب الأعمى لقوى الشر في العالم من جانبها.

يبتسم "طارق" ويقول:

- أمريكا قوة كبيرة تمتلك عناصر النجاح والتقدم، لكن إداراتها دائمًا منحازة لمصالحها التي ترتبط باللوبي اليهودي، وهو اللوبي الأكبر هناك، الذي

يسيطر على عالم المال والأعمال، وبالتالي على الأحزاب السياسية والانتخابات.

تكمل "شهد":

- والأمريكان.. أقصد رجال السياسة والاقتصاد لا يعرفون غير لغة المصالح، وهي لغة يجيدها الصهاينة، ولهم أبواقهم وصحفهم وقنواتهم التليفزيونية التي يقدمون من خلالها أنفسهم في أحسن صورة.

يقاطعها "طارق" قائلًا:

- إنهم ملوك الإعلام والدعاية في العالم يا عزيزتي.

* * *

يسود الصمت لحظات، كأن كل منهم يسربل مخزون الذكريات الأليمة، سواءً التي عاشها طفلًا وشابًّا "طارق" و"شهد" أو سمع أو قرأ عنها "باقي الشباب".

لحظات من الصمت الغارق في واقع حزين.. واقع مؤلم ومزمن في آن، فحكاية القضية الفلسطينية التي بدأت فصولها منذ أكثر من ستين عامًا، لا تزال فصولها مستمرةً.. العرض مستمر.. النزيف مستمر.. القتل مستمر.. والقهر مستمر.

استيقظت "شهد" من نومها، وأعدت لنفسها النسكافيه الصباحي بالحليب، وكعادتها في تلك الخلوة الصباحية التي تنفرد فيها بنفسها، تمسك بالماج الساخن الذي تتصاعد منه ألسنة البخار، وتجلس لترتشفه في صمت، وتشرد بأفكارها.

ذلك هو الوقت الذي لا ينازعها فيه إنسان.. الزمن الأثير لديها الذي تكون فيه "شهد" كما تحب أن تكون طبيعية بلا تكلف، بلا مساحيق، بلا مجهود نفسي في مواجهة أحد.. فقط هي الآن مع نفسها.. تستمتع بساعات قليلة من الصمت والغوص في أعماق الذات.

بعدما شربت النسكافيه وقرأت الجرائد الصباحية، أخذت "الشاور" اليومي الدافئ، وارتدت البنطلون الـ"جينز" والـ"تي شيرت"، ثم هرعت إلى مكتبتها.. توقفت لدقائق أمامها، وأخيرًا قررت أي الكتب المتجاورة على الأرفف سيكون رفيق يومها.

تختار في ذلك اليوم كتاب **"قصتي مع الشعر"** لأحد شعرائها المفضلين.. نزار قباني.. تعود إلى مقعدها الوثير المخصص لتلك الصباحات الخلوية في الركن الذي اقتبست فكرته من "طارق"، حيث تجتمع القراءة والكتابة والموسيقى.

تفتح الكتاب على فصل عنوانه **"أنا والدنجوانية"**، لفت نظرها العنوان فراحت تقرؤه، تغوص في المعاني الجميلة التي يسوقها نزار في سطوره، ومن فرط إعجابها بتلك الصور الأدبية النزارية تعيد قراءة الفصل من أوله لآخره.

تضع فاصلًا بين الأوراق التي تضمها سطور هذا الفصل لكي تقرأه في إحدى أمسيات "بيت العيلة" الأسبوعية مساء كل خميس، فقد اعتاد كل عضو من أعضاء تلك الخلية الأدبية ذلك.. أن يأتي بأجمل قراءاته أو خبراته أو حتى معزوفاته الموسيقية، لينهل الجميع من تلك الوجبة العقلية والروحية الشهية، بخلاف الوجبة الغذائية الموازية التي تعدها "شهد" بعدما تنضم إليها فتيات "بيت العيلة"، وشبابها أيضًا.

تفرح "شهد" بتلك الغنيمة، فبهذا الفصل ستكون - والموضوع الذي ستطرحه للمناقشة - نجمة الأمسية المقبلة، فهذا الطرح الذي يقدمه نزار يفجِّر عشرات الأسئلة، ويشعل جدلًا بلا حدود حول موضوع مثير شائك وإنساني إلى أبعد حد.

* * *

فماذا قال نزار؟ ها هي الصفحات التي انتزعتها من الكتاب، لتقرأها على الحضور مساء الخميس المقبل:

أنا والدنجوانية

إن (الدنجوانية) صفةٌ لا تنطبقُ عليَّ أبدًا..

فالدنجوان كما نعرفه شخص عابث ومنحل، وهوائي المزاج.. والحب عنده سفر طويل على أجساد كل النساء..

الدنجوان بهلوان محترف لا تعنيه فكرة الحب، ولا يتعامل بها أصلًا..

إنه مسافر لا مرافئ له.. ولا محطات..

أما أنا فمسافر من نوع آخر.. مسافر لا يرفض كل المرافئ.. وإنما في ذهنه صورة لمرفأ معين لا يعرف أين هو.. ومتى يلاقيه؟

إن (الدنجوانية) ليست في طبيعتي ولا تركيبتي، وتجارة الجواري ليست حرفتي.

إنَّني لا أؤمن بشراء المرأة أصلًا، ولا أستطيع أن أنفِّذ الحب مع امرأة أشعر أنها تبيعني جسدها..

* * *

ترى.. هل ستعجبك تلك الرؤية النزارية يا "طارق"؟ هل ستوافقه على تفسيره للفارق الشاسع بين ممارسة الحب.. وممارسة الجنس فحسب دون مشاعر؟ أعتقد أنك ستوافقه الرأي، لكنك ستشكِّك في المصداقية.. مصداقية الشاعر.. هكذا تفعل دائمًا.

ربما لأنك التقيت العديد من الكُتَّاب والشعراء.. ربما لأنك تعرفهم عن قرب، وهذا ما أتاح لك فرصة رصد الحقيقي منهم والـمُتخيَّل في رواياتهم وأشعارهم.. ربما لأنك تعلم أن أجمل الشعر.. أكذبه.

فلأنتظر وأرى ماذا ستفعل بك نظرية "نزار" الخاصة بـ"الدنجوانية".. داخلي شغف كبير بالاستماع إلى رأيك في تلك النظرية.. لكن هل ستتكلم بصراحة أمام الشباب؟ أم ستضطر أن تقول ما يجب قوله؟

إذن لا بد لنا من جلسة خاصة.. جلسة مغلقة غير تلك المعلنة اقتداءً بمؤتمرات القمة.. جلسة يقال فيها ما لا يقال في الجلسات العامة.. آه.. كم أفتقد جلساتنا الخاصة يا "طارق"؟ تلك الأوقات التي أتحرَّر فيها من كل شيء إلا من حبي لك، وذوباني في تفاصيل اللحظة.. أخذتنا أمسيات "بيت العيلة" ومشكلات أولادنا، أبعدتنا في الفترة الأخيرة عن سحابتنا الصغيرة التي كانت تقلع بنا إلى فضاءٍ آخر.. فضاؤنا.

أين أنت يا "طارق"؟ أين أنا؟ أخذتك مشكلة "ليلى" الأخيرة وأزمتها النفسية التي عانت منها ، عندما عادت إلينا "سارة".. غيرة الفتاتين وحساسيتهما المفرطة كل منهما تجاه الأخرى شدتنا.. محاولات "سيف" لمد الجسور بينهما ، ونجاحه في ذلك أخيرًا أفرحتنا..

محاولات الضغط من "أحمد" من أجل رجوعي إليه، وتكثيف تلك المحاولات من أطراف عديدة في محاولة لإقناعي بالعودة، ورفضي التام والنهائي والصريح لتلك المحاولات أخذت منا وقتًا، واستنفدت من طاقاتنا النفسية كثيرًا.

لا.. لا تدع طواحين الزمن تأخذنا.. تلفنا تروسها، وتفرمنا.

لا تدع الخيط السحري غير المرئي، الذي يربطني بك، ينقطع تحت وطأة سلاسل الحديد التي تحاصرنا.

لماذا أطلب منك أنت كل شيء؟ لماذا لا أبادر أنا؟ لماذا أنتظر منك دائمًا نقطة البداية؟...

يرنُّ جرس الموبايل، ويقرأ "طارق" اسم "شهد" مكتوبًا على الشاشة.. فيسرع بالإجابة:

- أهلًا حبيبتي.. مش عادتك تكلميني بدري كده.

ترد بدلال.. ولهجة عتاب:

- إيه؟ أزعجتك يا "طارق"؟ تحب أقفل السكة؟

بحماس.. ونبرة اعتذار:

- لا.. لا.. لا.. ده كلام برضه.. ده أنا ما باصدق نتكلم لوحدنا بعيد عن الأولاد والمريدين.

بنعومةٍ تطفو فوق نبرات صوتها تقول :

- طيب إيه رأيك نروح سينما النهاردة.. وبعدها تعزمني على العشاء في بيتك؟

بسعادةٍ وحماس يجيبها:

- ده كلام جميل جدًّا.. طيب سيبيني دلوقت يا ست الكل علشان أخلص كتابة المقالة اللي بأكتبها عن "واحة الغروب" رواية بهاء طاهر.. انتِ قريتيها.. مش كده؟

- لا.. لسه .. لكن قريت عنها كتير قوي وهبعت اشتريها دلوقت علشان أقراها قبل ما أقرأ مقالتك النقدية عنها.
- أوكي.. الساعة كام أفوت عليك يا "شهد"؟ ستة كويس؟
- كويس قوي علشان يكون عندنا وقت نقعد مع بعض شوية بعد السينما.
- أوكي يا حبيبتي.. باي.

* * *

تحب "شهد" جوليا روبرتس، ويحب "طارق" ريتشارد جير.. ويمكنك أن تعكس الجملتين، بمعنى أنها أيضًا تحب ريتشارد جير وتعتبره من نجومها المفضلين في السينما، وهكذا "طارق" يحب جوليا روبرتس ويراها من أفضل الممثلات اللاتي يؤدين أدوارهن بطبيعية وتلقائية مذهلة، فتشعر حينما تراها على الشاشة أنها لا تمثِّل، أو كأنها والشخصية التي تجسِّدها شخصية واحدة.

فيلم امرأة جميلة "pretty woman" هو الفيلم الذي اختاراه بعدما غيَّرا خطتهما الأولى الخاصة بالذهاب إلى السينما.. فاجأها "طارق" بعدما اصطحبها في سيارته، ومقصدهما إلى السينما بتغيير المسار في اتجاه الدقي.

قال مازحًا وهو يرى الدهشة ترتسم على وجهها:

- أنا قلت نعمل "Home Cinema" الليلة دي.. مش معقول يوم ما نتقابل وحدنا نروح نقعد في سينما، وسط الناس.

تبتسم بمكر كأنها تُحيي تلك الفكرة العبقرية، وتقول بصوت أنثوي ناعم:

- فكرة جميلة يا "طارق".. يااه.. فعلًا فكرة جميلة.

كان كل شيء متناغمًا في تلك الليلة، وبديعًا.. شاهدا الفيلم باستمتاع وهما يشربان النبيذ الأحمر.. كان يطوقها بذراعه المفرودة على مسند الكنبة، ويحتويها في صدره، ويضمها بحب بين الحين والآخر.. يتبادلان النظرات في لحظاتٍ عابرةٍ بين المشاهد.

ما إن ينزل تتر النهاية حتى يبدأ حوارهما، وكالعادة تسأله "شهد":

- هل تفعل مثلما فعل ريتشارد جير إذا كنت مكانه؟

يجيب بابتسامة ماكرة:

- هو صعب.. لكن إذا حبيت ممكن.

تشرد كأنها تتأمل وتسترجع مشاهد الفيلم، ثم تقول:

- دائمًا ما تعطينا السينما الحلم المستحيل، وتجعله حقيقة وواقعًا جميلًا من خلال أبطال وأحداث ، هي في الحياة أبعد ما تكون عن الحقيقة.

وتكمل رأيها:

- أنا شخصيًّا أرى أن ما فعله ريتشارد جير مع جوليا روبرتس في الفيلم (أقصد النهاية) مستحيل أن يحدث، وإذا حدث فهو استثناء الاستثناء، لا أقصد هنا فقط في الشرق، بل في الغرب أيضًا.. من الصعب على أي رجل أن يرتبط بامرأة كانت تبيع جسدها، وتعتبره مصدر رزقها.. صعب نفسيًّا على أي رجل تَقَبُّل ذلك.

يومئ "طارق" برأسه في غير اقتناع بما تقوله "شهد"، ثم يقول:

- صحيح أنه من الصعب نفسيًّا على أي رجل أن يقع في حب "مومس"، لكنه يحدث أحيانًا، فالمرأة عندما تسيطر على الرجل جنسيًّا يمكنها أن تفعل أي شيء.

- الحب.. أم الجنس أيهما أقوى؟

- الجنس الحقيقي الذي يزلزل كل ذرة في كيان الرجل أو المرأة هو الحب يا حبيبتي، لكننا في نظرياتنا الشرقية العقيمة نخصص بابًا اسمه "الحب"، وبابًا آخر اسمه "الجنس"، كأنهما شيئان والحقيقة أنهما شيء واحد.

لمعت عينا "شهد"، تصاعد صهد النشوة في وجنتيها، اقتراب "طارق" منها يفعل بها ذلك.. كلامه وحواره معها يفجر براكينها الكامنة.. خلوتهما بعد حرمان طويل يرسل إلى جسديهما بموجات كهرومغناطيسية تشعل فتيل أنوثتها.

تمتد يداه لتلامس وجهها.. تقترب شفتاه لتلثم وجنتيها.. سرب من القبلات المتتابعة يطبعها على وجهها في هدوء وعذوبة.. كأنه يوقِّع ببصمة الشفتين على كل مسامها.

تداعب أصابعه وجهها.. كتفها.. تتسلل إلى ظهرها.. تضغط ضغطات مدروسة ومحسوبة.. تفكّك العضلات.. تحرِّرها من توترها.. فن من الفنون التي يتقنها "طارق".. "المساج" الذي يحيل الإنسان إذا ما أجيد عمله إلى سحابةٍ ناعمةٍ منزوعةٍ الغيوم.

في غرفة النوم يكملان سهرتهما مع ضوء القمر والشموع ونار جسديهما.. حوار بلا كلمات.. يقول وتقول.. يحكي وتحكي.. يبكي وتبكي.. وكأن صخور الزمن قد تفتت مع انصهارهما.. وأعادتهما إلى اللذة الأولى.. الدهشة الأولى.. الرعشة الأولى.

الاندماج بين جسدين حبيبين يشبه الاندماج النووي.. تنبعث منه عشرات المواد الفعالة، والعناصر المشعة والغازات التي تغيِّر شكل الحياة على الأرض.. اندماج جسدين حبيبين يفعل ما يشبه ذلك، وتنبعث منه رائحة كونية شفافة فواحة هي: رائحة الحب..

تبتسم وهي مستلقية إلى جواره على السرير.. يبللها عرق الحب، تستدعي وهي تسحب نفسًا عميقًا من السيجارة وصف نزار لحالتها الآن:

"إن الجنس مهما قيل فيه، هو حوار ذكي بين جسدين.. هو توغل في غابات الفرح.. هو معركة أولاد على سرير من الرمل الناعم.. لا غالب فيها ولا مغلوب".

يغرق"طارق" في إغفاءة غلبته بعدما مارس الحب للمرة الأولى مع "شهد".. كأن أمان العالم كله قد اجتمع فوق جفنيه، فأسلمه إلى دقائق من النوم العميق، والدفء الجميل.

يفتح عينيه كأنما أفاق من غيبوبة، تتساءل نظراته المترنحة بين النوم واليقظة: هل هذا الذي أعيشه وأحسه الآن حقيقة.. أم أنني في حلم لا أزال؟

- هو حلم ولا علم؟

هكذا يسألها.

تومئ برأسها في سعادةٍ طفوليةٍ وخجلٍ، وتقول:

- هو حلم.. وعلم.

يجذبها بقوة في حركة خاطفة.. أصبحت الآن مستلقية، ينام وجهها على صدره في استسلام.. تداعب أصابعها الشعيرات التي تتناثر فوقه.. تشتبك قدماها بنعومةٍ مع قدميه بينما تلفهما ملاءةٌ ناعمةٌ.

يحس أنها المرة الأولى التي يمارس فيها الحب.. كان من قبل يمارس الجنس.. عشرات المرات .. بل مئات المرات .. مع "جيسيكا".. ومع "مارجريت" تلك الشيطانة الصغيرة.. مارسه أيضًا عدةَ مراتٍ عابرةٍ في رحلاته إلى جنوب شرق آسيا.. حيث المساج الذي يدغدغ عضلات الجسم، وينزع توترها، ويهيج في الوقت نفسه عضوًا بعينه، ويفضي إلى الجنس.

لذلك ففي تلك البلاد العجيبة - هكذا حكى "طارق" لـ"شهد" - فإنهم يرفعون لافتاتهم على المحلات التي تقدم خدماتها لطالبي الاسترخاء والمتعة.. لافتة مكتوب عليها: "مساج مع جنس".. ولافتة أخرى تخاطب المحافظين والملتزمين دينيًّا مكتوب عليها: " مساج فقط"، أي إن تلك المحلات المتخصصة التي يعمل بها أفضل ممارسات المساج وممارسيه تفهم سيكولوجية زبائنها، وتقدم إليهم ما يحتاجون إليه، كل على قدر إمكاناته البدنية والنفسية والأخلاقية والدينية.

في "تايلاند" فعلها أكثر من مرة مع فتاة ، أحالته أصابع يديها العشرة إلى جمرة نار. كان الاتفاق المبدئي مع "الكاشير" قبل دخوله غرفة المساج على: "مساج فقط".. لكن بعد 45 دقيقة من عربدة الأصابع المحترفة في جسده المستلقي في استسلام على سرير المساج والملاءة الناصعة البياض، والجو الفواح بروائح زيوت عطرية خلابة وشموع خافتة.. وجد نفسه منساقًا إلى الجنس بلا منازع.

صناعة الجنس من أهم الصناعات المربحة الآن على مستوى العالم، وخُصوصًا في تايلاند وبلاد جنوب شرق آسيا.. هكذا كان يصف لها الأجواء التي عاشها هناك.. ولماذا أُجبر على ممارسة الجنس مع محترفة على عكس ما نوى.

أجبرته الغريزة الطبيعية التي زرعها الله فينا كما زرعها في الحيوان، ثم أضاف إلينا العقل حتى ننشغل بموضوعات أخرى مثل الأخلاق والضمير والدين.. كان يريدنا أن نسمو فوق تلك الغريزة المتوحشة، وأن نقلِّم أظافرها.

- الغريزة الطبيعية.. البرية.. المجردة هي التي تحركت داخلي مع تلك الفتاة.. وغيرها ممن أُجبرت على ممارسة الجنس معهن طوال حياتي، فلم يكن أمامي اختيار آخر غير أن أنفجر أو أفجِّر نفسي، بعدما فتحت هي القفص، وخرج من جسدي ذئب يعوي.

كانت "شهد" تستمع إليه وهما مستلقيان على السرير مدهوشة.. مستمتعة بالحكايات المثيرة والأسرار الغريبة ، التي يبوح بها "طارق" إليها للمرة الأولى.. ويا للعجب.. فهذا كله يحدث بعد دقائق من أول مرة يمارسان فيها الحب معًا، ويتذوقان طعم العشق للمرة الأولى.

طوقته "شهد" بذراعها بحب.. ضمته بقوة، كأنها تريد أن تخترق جسده، كلام كثير يمتلئ به قلبها وعقلها وجسدها.. كلام يحتاج إلى ساعات.. لكنها لا تريد الآن أن تتكلم.. أبلغ الكلام لا يقال.. أصدق الكلام لا يقال.. وتلك لحظات الغوص الكامل في معانٍ لا تترجمها كلمات.

فلم تكن المرة الأولى التي تمارس فيها "شهد" الجنس.. ولم تكن كذلك المرة الأولى التي تمارس فيها الحب.. مارست الجنس مع " أحمد".. مارست الحب مع "خالد".. كانت مع "أحمد" تؤدي واجبًا من واجباتها الزوجية، وتجتهد في أن تحسِّن الأداء قدر الإمكان، فقد ورثت من أمها ذلك اليقين وهو أن تراعي الزوجة زوجها، وتمنحه من نفسها بإخلاص.. فهذا حقه عليها، ولا جدال في ذلك.

لذلك فقد كانت أصعب فترات حياتها هي تلك الفترة التي اجتمع فيها الحب والعشق.. الواجب والشغف.. أحمد.. وخالد.

كانت تتعذَّب وهي تؤدي أقدس واجباتها الزوجية بين أحضان "أحمد".. تغالب شعورها بالنفور والصد تجاهه.. فالمرأة إذا أحبت أغلقت مسام جسدها وحواس رغباتها أمام أي رجل يداعب أنوثتها أو يقتحمها.. إلا رجل واحد هو الحبيب.. وهي في ذلك تختلف عن الرجل الذي يستطيع في أحايين كثيرة أن يجمع بين امرأتين، وربما أكثر.

وعلى الجانب الآخر، كانت تلامس السحاب في نشوتها التي تصل إلى الذروة مع "خالد"، لكنها كانت سعادةً مؤقتةً سرعان ما تتحول إلى شلال جارف من العذاب وتأنيب الضمير.. وجلد الذات.

إنها الآن تلج إلى ذروة النشوة، وذروة التصالح مع النفس في آن معًا.. يغمرها سلام داخلي هائل، كان طبيبها النفسي يردِّد دائمًا جملةً لم تكن تدركها جيدًا.. كانت تفهمها وتستوعبها نظريًّا، لكنها لم تكن تتمثلها حتى جاءت اللحظة التي تعيش فيها واقعيًّا ما كان يقوله الطبيب.

- اتركي نفسك.. دعي الأحداث تتداعى.. إننا اقتربنا من الصخرة العتيدة التي تقف بينك وبين نفسك، وتسد الطريق منك.. إليك، دعينا نكسر تلك الصخرة معًا بالفأس.. ونفتتها.. دعيني أساعدك يا "شهد" في نسف تلك الصخرة.. لكي يحدث الزلزال.

- أي زلزال يا دكتور؟

- زلزال نفسك يا "شهد".. كل إنسان داخله تلك الصخور التي تقف فوق إحساسه.. تكبله.. تربطه بسلاسل حديدية تسجنه.. وعندما يتحرر يومًا من تلك القيود والسلاسل يصبح إنسانًا آخر.. كائنًا مختلفًا.. ويبدأ في الاحتفاء بنفسه العائدة.. وكيانه الجميل الذي يلتقي به، ويكتشفه للمرة الأولى.

ها هي قد حانت اللحظة يا دكتور "عمرو".. هاهي قد حانت اللحظة التي أتحرَّر فيها بنفسي من تلك الصخرة الكؤود.. ها أنا أولد من جديد.. حرة كما ولدتني أمي.. وها أنا أكتشف نفسي وأنا أخرج من قوقعة الزمن، وأحلّق في سماء العشق.

هل هي لحظة ميلاد أخرى.. في الزمن الأخير؟

"علَّمتني معنى العبارة تجربة الحياة ذاتها ، وأنا أقرأ الشعر أو أسمع الموسيقى.. كم مرة في حياتي أخذتني نشوة الشعر أو الموسيقى.. كم مرة في حياتي أخذتني نشوة الشعر إلى عوالم تتجاوز كل ما هو محسوس ومرئي حتى شعرت أن الحجُب بيني وبين المجهول توشك أن تسقط، وأن روحي ستُحلِّق خارج جسدي لتخترق سدود العالم البارد والأصم إلى دنيا الأسرار الأزلية المتلألئة بأنوار الحقائق الخالدة.. كم مرة كنت أصحو في الليل حتى وسط معارك الحروب التي لا تنقطع لكي أقرأ في الإلياذة وأستنطق شاعرها أن يفجِّر في نفسي ذلك النبع الذي ارتوَي منه هو .. في مراتٍ كثيرةٍ كان النداء يستمر أيامًا ولياليَ بأكملها لا ينقطع فيها إنشاد الشعر وألحان الموسيقى في البلاط، حتى يظن جنودي أن قائدهم قد جن، لعلي كنت أشتاق بالفعل أن يحل بي الجنون، فوسط هذه النشوة كنت أنسى أرسطو وأذكر أمي التي علمتني أن أحدًا لا يدخل مملكة الأسرار القدسية إلا في غمار نشوة تهتك المألوف لتلج إلى المجهول".

هذه هي خواطر "الإسكندر" كما عاشها بهاء طاهر في روايته "واحة الغروب"، وكما اكتشفها وهو يمارس إبحاره الأدبي والنفسي لأبعد أعماق "الإسكندر".

"الإسكندر" كان حاضرًا بقوة في أعماق الأديب، وهذا ما استشعرته وأنا أعيش أحداث الرواية وعالمها الأثير، وشخصياتها الحية رغم مرور مئات السنين على رحيلها عن عالمنا المحسوس.. الحاضر.

لذلك توقفت أكثر من مرة وأنا أقرا الفصل الثامن من الرواية، وهو الفصل الذي استنطق فيه الكاتب "الإسكندر" ليروي بنفسه قصته، والذي وصل فيه الكاتب إلى أبعاد إنسانية بديعة، ربما لم نفكر فيها من قبل ونحن نتأمل تلك الشخصية التاريخية الخالدة في الوجدان.

"لدغ الثعبان أمي لدغة الحب فجئت أنا، أتاها الإله الكبش ثعبانًا فكنت ثمرة الحب المقدس .. كان أبي الأرضي (فيليب) ملك مقدونيا يَهُمُّ بالدخول على أمي (أوليمپياس) حين شهد من الباب الموارب مضاجعتها مع الإله الزاحف.. رأى الثعبان الأسود الضخم يزحف فوق بطنها الأبيض المرمري وهي تعانقه في عشق ورآه يتخللها، فتراجع مغلقًا وراءه الباب في ورعٍ ورهبةٍ ، ثم أرسل قربانًا إلى معبد آمون- زيوس، الإله الثعبان - الكبش - الصقر الخفي الأسماء".

هكذا استحضر الكاتب روح "الإسكندر" كما صوَّرها خياله الغني بالمشاهد والأحداث التاريخية، المنطلق من دراسةٍ متعمقةٍ للتاريخ المصري القديم.. فرأينا على سن قلمه أسطورةً أخرى، مغايرةً لأساطير "الإسكندر" الذي نعرفه.

"فهل هو ابن الإله آمون حقًّا؟

"زرعت أمي في نفسي اليقين بأني ابن الإله منذ وعيت على الدنيا.. وكيف كان لي أن أكذِّب أوليمپياس وهي التي نشأت كاهنة في معابد الآلهة؟

قالت لي: ستسود الأرض ولن يقهرك إنسان وستنعم بخلود الآلهة.. كنتُ أيامها طفلًا حزينًا غاضبًا لأن أبي تزوج من امرأة أخرى وطلَّق أمي، فصحبتني إلى قصر أخيها الملك بعيدًا عن فيليب ومقدونيا.. قالت لي لا تحزن.. فيليب ليس أباك.. أنت ابن آمون – زيوس.. ستنقضي على أبيك الأرضي عشر سنين قبل أن ترث منه العرش تحكم من بعدها الدنيا وما عليها.. لم تكذب أي من نبوءاتها الأرضية، فكيف كان لي أن أكذِّب أني ابن للإله؟ وكيف يكون لي أبوان.. فيليب على الأرض وآمون في السماء؟ من أكون وما المطلوب مني في هذه الدنيا؟

ما كان بوسع أحد أن يساعدني على حل الألغاز أكثر من أرسطو، أعظم فلاسفة اليونان، استدعاه فيليب ليعلمني منذ كنت صبيًّا ووليًّا لعهده، لكنه لم يرشدني إلى الأجوبة.. اعتاد أن يدلي بحكمته في عباراتٍ قصيرةٍ غامضةٍ".

– صدقت أيها الإسكندر.. فماذا يفعل الفلاسفة إلا طرح الأسئلة؟ وتعليمنا كيف ندمن السؤال حول الوجود والكون والبشر وأنفسنا؟

شخصية "الإسكندر" إذن كانت الشخصية المحورية التي تصاحبنا داخل عالم "واحة الغروب".. "الإسكندر الفاتح".. الملك الذي يتحول بفعل خمر السلطة، ونشوة الانتصار الدائم والفتوحات العديدة، إلى فرعونٍ يبطش بأقرب الناس، ويعدمهم إذا ما تجرأوا وانتقدوه.

وهـو نفسـه اللغز الغامض الذي ظلـت "كاتـرين" إحـدى شخصـيات الرواية الرئيسيات تبحث بِنَهمٍ وفضول عن مقبرته، وتعرِّض نفسها وزوجها مأمور الواحة محمود عزمي للهلاك في العديد من مشاهد الرواية في رحلة بحثها عن المجهول ، الذي تريده أن يصبح معلومًا لها وللعالم أجمع.

وضع "طارق" القلم، وامتدت يده لتلتقط فنجان القهوة.. هكذا اعتاد أن يكتب أو يقرأ، وإلى جواره فنجان القهوة، والموسيقي الكلاسيكية وأحيانًا الخفيفة.

كان يستعد لسـهرة الخميس في "بيت العـيلة"، وقد قـرروا جميعًا أن تخصص سهرة هذا الأسبوع لمناقشة رواية "واحة الغروب".. قرأوها جميعًا، فهذا هو الشرط الذي وضعه "طارق" أو القاعدة الأساسية التي أصبحت سارية ومتفقًا عليها من الجميع.. أن يختار الجميع روايةً أو ديوان شعر أو مسرحيةً ويكون الاختيار بأغلبية الأصوات.. ديمقراطية.

ويعطي مجلس إدارة الخلية الأدبية ممثلًا في كبار العيلة (طارق وشهد) مهلة شهرًا لقراءة العمل بعناية وتركيز.. باستغراقٍ كاملٍ وعينٍ نقديةٍ متذوقةٍ للأدب والفن والجمال.. هذا هو دستور "بيت العيلة" الذي صوَّت له الجميع واعتمدوه.

بدأت الأمسية بملخص قدمه نادر للرواية.. قال:

- "واحة الغروب" هي أحدث رواية للكاتب المبدع بهاء طاهر.. تحكي عن علاقة مذبذبة بين "محمود عزمي" ويعمل مأمورًا بواحة سيوة، وزوجته الإنجليزية "كاترين" الأيرلندية الأصل.

- تتتبع "كاترين" آثار "الإسكندر الأكبر" للبحث عن قبره، وتحكي الرواية واقعة حقيقية حدثت بالفعل في واحة سيوة في أواخر القرن التاسع عشر.. تحديدًا عام 1897 ، عندما قام مأمور الواحة – وقتها – بتفجير معبد "أم عبيدة".

أكملت "ليلى" قائلة:

- وشخصية محمود عزمي كما رسمها بهاء طاهر في روايته البديعة هي شخصية لها ظل من الواقع، وكان محمود يعيش حياةً لاهيةً بين البارات وبنات الليل، وتم إبعاده من القاهرة بفعل فاعل ، عندما شكت السلطات أنه متعاطف مع الأفكار الثورية لجمال الدين الأفغاني وأحمد عرابي.

ارتفع صوت "مهنَّد" من الركن البعيد في الـ"ليفنج" قائلًا:

- خد زمبة يعني من إياهم.

ضحك "طارق" وقال:

- أيوه يا "مهنَّد" زمبة بس من العيار التقيل قوي.

دخلت "سارة" في المناقشة قائلة:

- أعجبتني شخصية زوجة "محمود"، "كاترين" فهي شغوفة بالآثار، تبحث بجرأةٍ وشجاعةٍ عن مقبرة "الإسكندر الأكبر" التي سمعت أنها توجد هناك في واحة سيوة.

- أعجبني – أيضًا – أنها فكرت بشكل إيجابي فيما حدث لها ولزوجها "محمود"، فلم تحزن وتكتئب لأنها تركت المدينة العامرة.. ولم تعتبر أن سفرها وزوجها إلى هذا المكان الرهيب عقوبة.. لكنها قرأت كثيرًا عن

الواحة، كعادة الأجانب الذين يكتشفون أي مكان يستعدون لزيارته بالقراءة والبحث أولًا ثم بالمعايشة الحية بعد ذلك.

وأكملت "ليلى" كلام "سارة" قائلة:

- فعلا يا "سارة".. ولم تجعل حياتها هناك - رغم كل الصعاب الرهيبة التي واجهتها - مأساة، بل اعتبرتها تجربةً لابد أن تستفيد منها، وأن تضيف إلى خبراتها في الحياة.

تبادل "طارق" و"شهد" النظرات بابتسامة تنُم عن الرضا والسعادة للعلاقة الجديدة التي بدأت تنمو بودٍ ومحبة بين "ليلى" و"سارة"، لكن فتاة واحدة كانت تبدو عليها غيوم الحزن، هي "عالية" التي كانت تحضر للمرة الأولى أمسيات "بيت العيلة".. لم يَدْعُها "سيف" إليها من قبل، وحتَّى هذه المرة كانت "سارة" هي التي دعتها لمشاركتهم مناقشة رواية بهاء طاهر.. فقد كانت تسمعها كثيرًا في الكلية تتحدث عنه.. وكانت سارة – وقتها – لا تعبأ كثيرًا بالقراءة أو الثقافة، أما الآن فقد أصبحت إنسانةً أخرى.

لاحظت "شهد" ذلك، وفهمت ما يدور داخلها، ولم تشأ أن تضغط عليها، وأن تسبِّب لها مزيدًا من التوتر إذا ما وجهت إليها أي سؤال.. أو طلبت منها المداخلة والمشاركة في المناقشة الدائرة.

أمسكت "شهد" بالرواية، وفتحتها عند صفحةٍ معينةٍ حددتها بفاصل للكتب، وبدأت تقرأ:

- هذه السطور كتبها المؤلف على لسان كاترين.. بطلة الرواية.. تقول كاترين:

"قرأتُ كلَّ شيء عن هذه الصحراء، وعن سيوة قبل أن نبدأ الرحلة.. كل ما جلبته معي من أيرلندا من كتب الرحالة والمؤرخين وكل ما استطعت أن أجده في مكتبات القاهرة.. اعتقدت أنني لن أكتشف جديدًا، ولن يدهشني شيء.. درست كل المكتوب عن الطريق، وعن الآبار والكثبان والعواصف، لكن الكتب لم تحدثني عن الصحراء الحقيقية.. لم أعرف منها كيف تتغيَّر الألوان فوق بحر الرمال عبر ساعات النهار، ولا وجدت فيها كلمة عن تحرك الظلال وهي ترسم سقفًا رماديًّا نحيلًا على قمة تل أصغر، أو تفتح بوابة داكنة في وسطه، ولم تعلمني كيف تنعكس السحب العالية الصغيرة فوق الكثبان أسرابًا مسرعة من طيور رمادية، ولم تتحدث عن الفجر، بالذات الفجر، وهو يتحول من خيطٍ رقيقٍ أبيض في الأفق إلى شفقٍ أحمر يزيح الظلمة ببطءٍ إلى أن يتوهج الرمل بحرًا ذهبيًّا مع أول شعاع للشمس، وساعتها تنفذ إلى أنفي رائحة لم أعرفها في حياتي أبدًا من اختلاط ندى الفجر بالشمس بالرمل، رائحة شهوانية لا تنفذ إلى أنفي وحده، بل تتفتح لها مسام جسمي كله فأكاد لولا الخجل، لولا أصوات رجال القافلة الذين استيقظوا خارج الخيمة، أن أمسك بيد محمود وأقول تعال هنا بسرعة، فوق هذا الرمل المبتل.

ابتسم "طارق" وهو يتابع قراءة "شهد" لمقطع على لسان "كاترين"، والمعنى بالطبع في بطن الشاعر، تصطدم عيناها بعينيه بينما ترفع عيناها من فوق الكتاب.. تقرأ ما يريد "طارق" أن يقوله.. تحاول الفرار من عينيه حتى لا يلتقط الشباب تلك الرسائل المتبادلة على الهواء مباشرة.

لكن.. ورغم كل ما يبذلانه من محاولات، الصب تفضحه عيونه..

كان الطاووس يمشي مختالًا بنفسه، مغرورًا بما حباه الله من شكلٍ جميلٍ، وريشٍ ملون، وقوة تثير غيرة سائر الطيور.

وذات يوم التقى الطاووس بأحد الحكماء، فسأله الحكيم:

- لماذا كل هذا الغرور؟

فرد الطاووس بلهجةٍ متعاليةٍ:

- لأنني الأجمل والأقوى، ولا أعتقد أن شيئًا يمكنه أن يهزمني، أو أن ينال مني.

ابتسم الحكيم ساخرًا.. مستنكرًا وقال:

- لا أيها الطائر الجميل.. القوي.. المغرور هناك شيء في الحياة يستطيع أن يهزمك، ليس هذا فقط، بل ويقضي عليك تمامًا.

ضحك الطاووس وقهقه باستخفافٍ وتعالٍ، وقال:

- وما هذا الشيء المخيف.. الرهيب..؟

ابتسم الحكيم مشفقًا على الطاووس المتكبِّر وقال له:

- الفِكر يا صديقي.. الفِكر يمكنه أن يهزم أعتى الرجال.. ويهدّ أقوى الكائنات.

استمر الطاووس في القهقهة بصوت عالٍ، وهو يشير إلى الحكيم مستهزئًا، وقال:

- إذن.. لماذا لا تقول لصديقك "الفِكر" إنني في انتظاره، وإنني أرحب بهذا التحدي، لأني أحب التحديات الكبيرة.. خذ منه موعدًا.. وأرسله إليَّ.. سأكون مستعدًا لمواجهته في أي وقتٍ.

ثم استطرد قائلًا:

- بالمناسبة.. من هذا "الفِكر" الذي تتحدث عنه؟ ما شكله؟ ما حجمه؟ ما قدر قوته؟ أريد أن أعرف، بل إنني أتحرَّق شوقًا وشغفًا بملاقاته.. وهزيمته.. قل لي يا حكيم.. احكِ لي عن الفِكر.. صفه لي من فضلك..

ابتسم الحكيم مشفقًا.. وقال للطاووس:

- لا .. هذا هو الشيء الذي لا أستطيع وصفه.. يمكن أن تفكر وتصل بنفسك إلى الإجابة عن سؤالك .. وتتعرف إلى "الفِكر".. وتبدأ معركتك معه..

قال الطاووس بتكبُّر:

- إذن سأفكر.. وسأخبرك عندما أجد هذا "الفِكر"، وعندها سأهزمه شر هزيمة.

وذهب الطاووس يفكر.. يبحث عن هذا "الفكر" الذي يهزُّ أشد الرجال وأقوى الكائنات ، الذي حدثه عنه الحكيم، لكنه لم يجده.

سهر الليالي يفكر، ويجهد عقله بحثًا عن هذا الشيء دون جدوى، وكلما مرت الساعات، والأيام والليالي تثاقلت الهموم فوق رأسه، وهزل جسده، وسقط ريشه الجميل من فوق لحمه.

انشغل الطاووس تمامًا.. واحتل تفكيره هذا الشيء الغامض الذي حدَّثه عنه الحكيم، والذي أقسم الطاووس للحكيم أنه سيهزمه حتمًا.

ويومًا بعد يوم فقد الطاووس ريشه الملون كله.. أصابه الضعف والهزال.. وخارت قوته، فذهب إلى الحكيم يجر أذيال الخيبة.. محبطًا.. حزينًا.. هزيلًا، وسأله بضعفٍ وتوسل:

- بالله عليك يا حكيم أن تُجيبني عن سؤالي.. لقد تعبتُ جدًّا في البحث عنه.. قل لي: ما الفِكر؟

ضحك الحكيم مشفقًا.. متعاطفًا مع الطاووس المنكوب الذي كان يومًا مختالًا بجماله وجبروته وقوته.. وقال:

- هذا هو الفِكر أيها الطاووس.. إنه ما أنت فيه الآن.. وما تعاني منه منذ بدأت رحلتك في البحث عنه.. الفِكر.. هو التفكير المضني الذي يحتل عقل الإنسان، ويجعله يدور في دائرةٍ مغلقةٍ لا نهاية لها.. فيسلبه قوته، وينزع منه قدرته على التركيز والتدبر.

ابتسم الطاووس أخيرًا.. وقال:

- صدقت يا حكيم لقد هدَّني الفِكر.. فأسقط ريشي عن جسدي وانتزع مني راحة البال.

وتوقف الطاووس قليلًا.. ثم قال للحكيم متوسلًا:

- أرجوك يا حكيم.. ابعد عني ذلك "الفِكر".

هذه القصة كانت أمي – رحمها الله – تحكيها لنا كثيرًا. وهي قصة على ما يبدو من التراث القديم للقصص والأساطير، وربما تنتمي إلى الإبداعات الشبيهة بـ"ألف ليلة وليلة" أو "كليلة ودمنة".. كانت تريد بها أن تعلِّمنا شيئًا.. هكذا كانت ترسل إلينا برسائلها المحمَّلة بخبراتها الإنسانية.

فهل تعلمتم شيئًا من قصة الحكيم.. والطاووس؟

كانت "شهد" تحكي، و"سيف" و"ليلى" ينصتان باهتمام.. حاول "سيف" أن يستنتج ويلتقط ما تريد "شهد" أن تقوله من خلال حكايتها.. إنه يقرأ شخصية أمه جيدًا، ويفهم طريقتها في توجيه نظره إلى أَمْرٍ من الأمور.. أو دفعه إلى موقف معين.

لذلك بادرها بسؤالٍ مباشرٍ حتى لا يضيع الوقت في المراوغات والمناورات، وقال:

– قولي لي يا "شهد" بسرعة .. من الطاووس؟

ابتسمت "شهد" ابتسامةً ماكرةً وقالت:

– دي حكاية.. مجرد حكاية.. فيها حكمة طبعًا مثلها مثل كل حكايات التراث.. حكمة مضمونها أن الفكر بمعنى (المعاناة في التفكير المضني بحثًا عن الحقيقة) يؤدي إلى المرض، وأحيانًا إلى الموت أو الجنون.

– هيه.. كده فهمتك يا "شهد".. تقصدين "عالية" أليس كذلك؟

– بالضبط.. تمام..

شردت "ليلى" وزادها الخجل توهجًا ، عندما اصطبغت وجنتاها باللون الأحمر، فاحتوت "شهد"حرجها بسرعة وقالت:

- لا تنزعجي يا "ليلى".. أنا أعرف كم حساسيتك وقلقك من أن تكوني أنتِ السبب فيما يحدث من تغير في مشاعر "سيف" تجاه "عالية"، لكني أؤكد لك أن ما حدث كان مقدرًا له أن يحدث.. هناك أشياء تقع في حياتنا دون أن نحسب لها حسابًا.. دون أن نتوقعها أو نفكر يومًا أننا سنعيشها.. إنه القدر، ونحن يا حبيبتي مسيرون بنسبةٍ كبيرةٍ، ومخيرون بنسبة صغيرة جدًّا في حياتنا.

بدا"سيف" شاردًا مهمومًا بعض الشيء ، وهو يستمع إلى حوار أمه مع "ليلى".. فكر ماذا عساه أن يفعل مع "عالية"؟ ماذا يقول لها؟ إنه يعلم أنها هي ذلك الطاووس في حكاية "شهد".. الطاووس الذي أعياه الفِكر بحثًا عن الحقيقة، لكن "عالية" تدرك الحقيقة بعقلها، وتنفيها بقلبها.. نعم.. يكذب الإنسان على نفسه أحيانًا لأنه لا يريد أن يصدق الحقيقة، ولا يرغب في أن يراها أو يسلِّم بها.

إنه يرى "عالية" الآن كالوردة التي تذبل أمامه يومًا بعد يوم.. يلحظ شحوب وجهها، وفقدانها وزنها بصورةٍ لافتةٍ، ويتألم لما يحدث لها بسببه.

إنه لا يريد أن يقسو عليها لأنه يحبها - لا يزال - ويحترمها ويعتبرها أقرب صديقة إلى قلبه وعقله، لكنَّ هناك عنصرًا جوهريًّا تغيَّر في كيمياء العلاقة بينهما.. كانا حَبِيبَيْن يملكان مشروعًا وحلمًا مشتركًا للمستقبل، والآن توارى المشروع، وتبخَّر الحلم، وبقي شبح الصداقة ماثلًا.

تهرب منه "عالية"، ولا تريد أن تصدق أنه هو الشيء الوحيد المتبقي من "حلم العمر".

و"سيف" يحاول أن يبرر لها تلك الحقيقة المؤلمة بالتدريج.. لا يريد أن يصدمها مرةً واحدةً.. يريدها أن تفهم ما حدث وحدها ، دون أن يضطر إلى التوضيح والمصارحة التي يشعر أنها ستكون قمة القسوة ، سواء بالنسبة لها أو له هو شخصيًّا.

كل ما يحدث حتى الآن تلميحات واضحة بأن العلاقة بينهما لم تعد العلاقة نفسها التي كانت، حتى سهرات وأمسيات "بيت العيلة" لم يكلمها أبدًا عنها.. لكنها عرفت من "نادر" زميلها في الكلية عندما سألها لماذا لا تأتين إلى صالون الخميس في "بيت العيلة".. هنا.. هنا فقط عرفت بموضوع سهرات ليلة الجمعة التي يدعى الجميع إليها.. إلا هي.

يقول "سيف" لأمه:

- دبريني يا أمي.. ماذا أفعل؟ لا أريد أن أجرح مشاعرها.. لا أريد أن أسبِّب لها صدمةً.. لن أسامح نفسي إذا آذيتها بأية صورة.

تنقَّلت عينا "شهد" بين الحبيبين الصغيرين، ثم قالت:

- لا بد أن تصارحها.. الحقيقة مُرة نعم.. لكن الفِكر أكثر مرارةً وقسوةً.. صارحها يا "سيف" بطريقتك الحنون.

تدخلت "ليلى" على استحياء والخجل يورد وجنتيها، وقالت:

- أرى أن يكتب لها خطابًا يا "طنط" .. "سيف" لن يستطيع أن يقول لها ما يريد وجهًا لوجه.. أعتقد أنه صعب عليه، فهو إنسان حسَّاس للغاية، وسوف يؤلمه أن يواجه إنسانةً عزيزةً عليه بهذا الكم من القسوة.

ابتسمت "شهد" وهي تنظر إلى "ليلى" وترمقها بنظرةِ إعجابٍ، ثم قالت:

- عفارم عليكِ يا "لولا".. دي فكرة بمليون جنيه..

"مركز التصميمات والموضة.. كُن متميزًا في صناعة الأزياء

تصميمات تواكب أحدث خطوط الموضة وتنفذها طبقًا للمواصفات العالمية .

دورات تدريبية ودبلومات معتمدة عالميًّا في تصميم الأزياء وتنفيذ الباترون .

مراكز التكنولوجيا والابتكار"

ما أن انتهت "سارة" من قراءة الإعلان في جريدة الأهرام حتى قفزت فرحًا، والتقطت تليفونها المحمول لتتصل بـ"ليلى" وتخبرها بما قرأته.. انتقلت حالة الفرح إلى "ليلى"، فقد كانت الفتاتان (اللتان أصبحتا - الآن - متقاربتين بعد النفور الذي بدأت به علاقتهما) تبحثان عن مركز موثوق به فنيًّا وعلميًّا لتبدآ فيه دراستهما في تصميم الأزياء.

اتفقت"ليلى" و"سارة" على الالتحاق بهذا المركز، وتبادلا التشجيع والتحفيز للفكرة بحماس شابتين متطلعتين لملامسة أحلامهما، وجذبها إلى أرض الواقع.

وعندما جلسا معًا يخططان للمستقبل، كان بيت الأزياء المصري ذو الطابع الخاص هو حلمهما المرتقب.. لم تكن "ليلى" ترغب في أن يكون "بيت

الأزياء" الذي سوف تؤسسه مع "سارة" صورة مكررة من بيوت الأزياء العالمية.. كانت تحلم بأن تكون التصميمات مبتكرةً وفريدةً، والأهم من هذا كله أن تحمل اسم وروح وتاريخ مصر.

وكانت "سارة" تستمع إلى حديث "ليلى" بإعجاب خفي واحترام جم، فها هي الفتاة التي ولدت ونشأت في أوروبا، والتي تشكَّل وجدانها وتكوَّنت رؤيتها للدنيا هناك، تفخر بمصريتها، بل وتحلم بأن تجعل ابتكاراتها في المستقبل مصرية الروح والشكل، وقادرة على اقتحام السوق العالمية في الوقت نفسه.

هكذا حلمت "ليلى" وشاركتها "سارة" الحلم والإصرار على تنفيذه.. كان وهج النجاح الكبير يحلِّق في مخيلتهما، فيزيدهما حماسةً، ويدفعهما إلى التفكير في كيفية الوصول إليه.

اتفقت الصديقتان على خطة عمل علمية يبدآن بها طريق الألف ميل.

قالت "سارة" لـ"ليلى":

- الدراسة في المركز سوف تعطينا المفاتيح الفنية، والتدريب العملي الصحيح لصقل موهبتنا، لكن أفكارك الكبيرة يا "ليلى" تتطلَّب ألا نكتفي بالدراسة في المركز، وألا نكون متلقيتين فقط، بل أن نبدأ في بلورة أفكارنا والتخطيط لها، ولا مانع من طلب المشورة من "طارق" و"شهد".. الموضوع برضه يحتاج إلى تمويل يا "ليلى".. مش كده ولا إيه؟

ردت "ليلى":

- فعلًا يحتاج إلى تمويل، لكن الأهم الآن هو بلورة الفكرة ودراستها جيدًا، وبعدها نفكر في التمويل.. العكس مش حيوصلنا لحاجة.. لازم الفكرة تدرس كويس قوي وبعدين ندَور على التمويل.. ساعتها مش حيكون مشكلة لأن الفكرة الجيدة تصنع طريقها، وتخلق أدواتها.

قالت "سارة":

- طيب.. نقسِّم الشغل علينا.. انتِ أكيد حتنزلي تشتري كل كتب الأزياء بكل اللغات، وحتقعدي تمققي عينيكِ فيها.

وضحكت وأكملت:

- ما أنا عارفاكِ.. دودة قراية؟

ردَّت "ليلى" بابتسامةٍ جميلةٍ قائلةً:

- وانتِ طبعًا حتقعدي على الكمبيوتر.. وهات يا بحث.. حتجمعي لنا كل المعلومات والصيحات والموضات حول العالم.

اشتعلت الفكرة بالحماس والإصرار في قلب الفتاتين، وحدتهما الموهبة، وأزال الفن وحب الابتكار من قلبيهما شوائب الغيرة التي كانت.

بريق الفكرة وجمال الفن والإبداع يسمو بالإنسان.. يجعله دائمًا فوق الصغائر، ويضفي على شخصيته هالات من التسامح وتقبُّل البشر كما هم، ويمنحه نعمة الرضا.. إنها روح الفن وجماله التي تبثنا طاقة حب عظيمة نواجه بها العالم.

شيء آخر جمع الفتاتين ووحَّد مشاعرهما.. العمل التطوعي، والميل إلى المشاركة في الأعمال الإنسانية والخيرية.. زياراتهما المتكررة لمعاهد الأيتام والجمعيات الأهلية التي ترعى الأطفال المتشردين، والذين بلا عائل.. كانت "ليلى" تحب العمل التطوعي، وتعتبره مصدرًا للراحة النفسية والإحساس بالرضا.. وكانت "سارة" كذلك تغمرها مشاعر إنسانية عميقة، تتعاطف بشدة مع الفقراء والبؤساء والمغمورين المقهورين.

كان الأسبوع الماضي موعدهما لقضاء يوم مع الأطفال في مستشفى سرطان الأطفال، وكانت "ليلى" قد أعدت برنامجًا ثقافيًّا وترفيهيًّا لهم إلى جانب اللعب والملابس التي جلبتها الصديقتان، واشتركا في دفع ثمنها.

لم يكن العمل التطوعي من وجهة نظر "ليلى" مجرد عطاء مادي أو إحسان لفئة محرومة أو مقهورة، لكنه كان عندها في الأساس عطاءً معنويًّا وإنسانيًّا.. أن تمنح وقتًا خيرًا من أن تمنح مالًا، والأفضل لو اجتمع الاثنان معًا.

انتهزت "ليلى" فرصة وجودهما في مستشفى الأطفال في ذلك اليوم الذي يوافق عيد ميلاد أمها "جيسيكا"، وطلبت منهم أن يساعدوها في إدخال البهجة إلى قلب أمها المقيمة في "لندن" والتي كانت تتمنى أن تشاركها الاحتفال بعيد ميلادها لولا وجودها هنا في مصر.

تحمَّس الأطفال الصغار الذين أصابتهم طلقة المرض الغادر في قلب طفولتهم.. وسادت بينهم حالة من المرح نسوا معها آلامهم، وانطلقوا بتلقائية يغنون أغنية "عيد الميلاد" كما طلبت منهم "ليلى".. أمسكت بالموبايل وطلبت رقم تليفون أمها "جيسيكا".. كان اليوم هو عيد ميلادها، وأرادت

"ليلى" أن تقول لها كل سنة وأنتِ طيبة يا أمي يا أحب الناس إلى قلبي بطريقتها الخاصة، فرأت أن تجعل الاحتفال بها، وبيوم ميلادها احتفالًا ذا طابع إنساني.. إنها تعلم طبيعة "جيسيكا"، وتعرف أن أمها كائن معجون بالإنسانية ومرهف الحس.. شغوف بالعمل الإنساني، وتتذكر مشهدًا من أيام طفولتها لا تنساه رغم مرور أكثر من عشر سنوات على حدوثه.

كانت مع "جيسيكا" و"طارق" في زيارة إلى أهرامات الجيزة.. وهناك أثار انتباهها الحناطير والجمال التي يحرص الزائرون على ركوبها والتنزُّه بها بين شوارع ذلك المكان الأثري الخلاب.. طلبت "ليلى" من "طارق" أن تركب حنطورًا فلبَّى طلبها.. رَكِبَتْ ووالدها ووالدتها، وانطلق بهم الحنطور.

كانت "ليلى" طفلة صغيرة لم تكمل العاشرة من عمرها بعد، وكانت في قمة سعادتها وهي تقضي اليوم في منطقة أهرامات الجيزة، حيث تعطيها عظمة الفراعنة إحساسًا بالتميز، وتبثها حكايات المصريين القدماء مشاعر التفرُّد والشموخ والكبرياء.

أفاقت "ليلى" من إحساسها البالغ بالنشوة، وانتعاشها بنسمات الهواء الطرية، على صوت ضربات الكرباج تلسع جسد الحصان الذي يجرُّ عربة الحنطور، وقعت عيناها على جلده المتشقق من فرط الإجهاد وسوء التغذية والضرب اللاإنساني الذي يتعرض له طول الوقت.

نظرت الفتاة مليًّا فوجدت قطرات من الدم تسيل من جسد الحصان، وهو يركض في إعياء.. مغبون.. مقهور.. مغلوب على أمره.

صرخت الطفلة الصغيرة فجأةً، وأمسكت بيد أمها "جيسيكا" في رعب.. ودوَّت صرخاتها بكلمات مخنوقة بالدموع:

- مامي.. مامي.. الحصان ينزف دمًا من الضرب.. انظري يا أمي.

انتبهت "جيسيكا" إلى الحصان.. رأت قطرات الدم تسير بجوار خطوات الحصان المسكين.. استشاطت غضبًا وقالت بنبرةٍ حاسمةٍ:

- أوقفه يا "طارق" .. قل لهذا الوحش أن يوقف العربة.. الحصان سوف يموت، إنه ينزف ولا يقوى جسده على حمله، وهذا الحقير يستعبده، ويسخِّره بلا رحمة للعمل طول اليوم بلا راحة.. بلا تقدير لكونه كائنًا حيًّا له متطلبات، وعنده إحساس.. انظر يا "طارق" إلى جلد جسده.. كله تشققات من فرط الضرب بالكرباج.

وامتلأت عينا "جيسيكا" بالبكاء، وكانت "ليلى" قد سبقتها، وانخرطت في البكاء والصراخ الهيستيري:

- لا أريد الحنطور..أريد أن أنزل ..أريد أن أنزل.. أنزلوني من هنا.

وصاحت "جيسيكا":

- أنزلنا فورًا يا "طارق".

قال صاحب الحنطور:

- إيه يا "مودام".. ده انتو لسه راكبين.. ودفعتوا ثيرتي باوندز.. طب خلوني أعمل معاكو واجب.. ولا يعني إحنا منعرفش أصول الضيافة؟

صرخت "جيسيكا" وقالت:

- أنزلنا.. أنزلنا فورًا.. حالًا.

واضطر "طارق" لأن يأمر الرجل بالتوقف، كما ذهب إلى شرطة السياحة، وحرَّر محضرًا باسم "جيسيكا" سجلت فيه تلك الواقعة المؤسفة.. الاعتداء على حيوان أعزل.. لا حول له ولا قوة.

كان الضابط يستمع إليها وهو يكتم الضحك، وأمين الشرطة يكتب ما يمليه عليه الضابط بعد ترجمة كلام "جيسيكا" إلى العربية.

تبادل الضابط والأمين ضحكات مكتومة، بعدما طلبا من "جيسيكا" التوقيع على المحضر، ولسان حالهما يقول:

- مسكينة "جيسيكا".. تعتقدين أن أحدًا سوف يهتم بهذا المحضر، أو يتحرك لهذا الأمر الذي تعتبريه جللًا.. الاعتداء على حقوق الحيوان يؤلمك ويغضبك، ويدفعك لاتخاذ موقف إيجابي حضاري.. أما عندنا فمعظم المسئولين لا يهتز لهم جفن للاعتداءات اليومية والممارسات غير الآدمية المنافية لحقوق الإنسان.

على هذه الخلفية وتلك القراءة لشخصية "جيسيكا"، خططت "ليلى" للاحتفال بعيد ميلاد أمها عبر الأثير.. كانت تتمنى - الآن - لو كانت هناك تطفئ معها شمعة عيد الميلاد، لكن تصادف تزامن جدول امتحاناتها في (السيميستر) مع موعد عيد ميلاد "جيسيكا"، ولم تجد مفرًّا من الاحتفال بها بطريقة أخرى.

ما أن رفعت "جيسيكا" سماعة التليفون ، حتى انطلقت أصوات الملائكة الصغار بحب وحماس بأغنية عيد الميلاد:

Happy birthday to you.. Happy birthday to you.. Happy birthday to Jessica.. Happy birthday to you

انتهى الأطفال من أغنيتهم التي شاركتهم في أدائها الحماسي "ليلى"، وما أن خفتت الأصوات المرحة الملونة بلون الفرحة والألم، حتى تصاعد النحيب المختنق على الطرف الآخر، كان بكاء "جيسيكا" قد بدأ خافتًا.. هامسًا، ومع تفاعل مشاعر الصغار، ومشاركتهم إياها في الاحتفال، لم تتمالك نفسها، ورغمًا عنها تعالى صوت بكائها الهيستيري.

وضعت "ليلى" سماعة التليفون وجلست تكتب لـ"جيسيكا" رسالة على الفيس بوك.. رسالة أرادت من خلال سطورها أن تقول لها كل شيء، وأن تعبِّر عما يدور داخلها وكثيرًا ما تعجز عن التصريح لها به، وبدأت "ليلى" رسالتها إلى "جيسيكا":

Mom,

you're a wonderful mother, so gentle, yet strong, the many ways you show you care, always make me feel I belong to you, you're patient when I am foolish.. you give guidance when I ask.. it seems you can do almost anything.. you're the master of ever.. when I ask you're dependable source of comfort.. you're my cushion when I fall.. you help in times of trouble.. you support me whenever I call.. I love you more than you know.. you have my total respect.. if I had my choice of mothers you'd be the one I'd select :

From: Lila Tarek
To: Mummy Jessica.

ترى "شهد" نفسها تجلس في حديقة تحيطها الأشجار الوارفة مختلفة الأشكال والأنواع.. أشجار ضخمة ذات جذوع عريضة، وأغصان كثيفة وأوراق داكنة الخضرة، وثمار أسطورية الحجم واللون والرائحة.

وأشجار سامقة، مكتنزة الجذع ، كأنها فتاة رشيقة تباهي بقوامها الفارع، وأغصانها المتشابكة التي ترسم لفظ الجلالة "الله"، وتتطلع بخشوعٍ صوب السماء.

تلتفت "شهد" حولها بفرحةٍ ودهشةٍ، وقبل أن تسأل ما الذي يحدث لها، تجد ثمارًا تسقط في حِجرها، وبجوارها ثمرة جوافة لم ترَ مثلها أبدًا.. تلمع قشرتها لمعة خرافية كأنها مغسولة في بحار اللؤلؤ.. تفوح منها رائحة شهية لم تشمّ مثلها من قبل.

تفيق من ذهولها على صوت ارتطام حبة مانجو ضخمة ، سقطت بجوارها مباشرةً، تجزع، وتتلفت حولها مأخوذةً بما يحدث.

تداهمها زقزقة عصافير تغرد مجتمعة، كأنها "كورَس" يغني لحنًا واحدًا في وقت واحد.. تنظر حولها في انبهار.. تقع عيناها على غصن تسكنه حمامتان بينهما عش بنياه من القش الأصفر، وفجأة تطير الحمامتان.. ترفرفان في اتجاهها.. تحملان غصنهما وعشهما، وتحطان على العشب الأخضر أمامها.

وفي مشهد أسطوري تبيض إحداهما بيضة، ثم تضع الثانية.. الثالثة.. الرابعة.. العاشرة، ويتوالى ظهور البيض بلا توقف.. عشرات البيضات تضعها الحمامة التي لم ترَ مثلها أبدًا، ولم تقرأ، ولم تسمع شيئًا كهذا.

وفي تتابعٍ سريعٍ ومثيرٍ، ترقد الحمامة الأم على كل البيض اللانهائي العدد، ودفعة واحدة، وفي لحظات، تبدأ الصغار بنقر جدران بيضاتها واحدة وراء الأخرى، يتكسر القشر، وتخرج من كل بيضة حمامة صغيرة.. متناهية الصغر.

وفجأة ترى "شهد" الحمام الوليد يكبر، ويظهر على جلده الريش، وينمو ويشتد عوده، ويطير جميعه في سرب مبهر في اتجاه النهر الرقراق الذي تطل عليه الحديقة الوثيرة.

وسط ذهولها يخرج رجل بلا ملامح.. قادم من مياه النهر، يتقدم نحوها فاتحًا ذراعيه، تجري نحوه في خوف، يضمها بقوة رهيبة، فتشعر بعظامها تطقطق.. تحسبها تتكسر.

يحيطها بذراعيه.. ينظران معًا إلى سرب الحمام الوليد ، الذي طار قبل الأوان.. يرقبان معًا معجزةً من معجزات الله بانبهار.. يضمها الرجل الذي لم تتبين ملامحه في البداية.. يضمها إليه بقوة ثم يلثم شفتيها بحب واشتهاء.. تَفْرُك عينيها.. تحاول أن تَتبيَّن ملامحه.. تراها وقد تحددت الآن.. يظهر أمامها وجهه بوضوح.. تصرخ من فرط الفرحة والنشوة:

- طارق.. طارق.

تفتح عينيها مبهورةَ الأنفاس لتجد نفسها في سريرها، تمر لحظات وهي تسبح في المنطقة الوسطى بين الوعي واللاوعي.. تلك اللحظات التي نحاول خلالها أن نستجمع ذرات وجودنا، ونعيد برمجة بيانات ذاكرتنا.. أين أنا الآن؟ في أي وقت من أوقات الليل والنهار؟ لحظات ضبط النظام الداخلي للكمبيوتر ، الذي زرعه الله في خلايانا قبل أن يعرف العلماء هذا الاكتشاف الإنساني ، الذي قلب وجه الحياة.

كل إنسان على وجه الأرض مرَّ بتلك اللحظات.. لحظات استعادة الوعي من اللاوعي.. من المؤكد أنك جربتها في اللحظات التي تعقب الإفاقة من التخدير بعد عمليةٍ جراحيةٍ.. أو عشتها بعد غفوةٍ في مكان أو بلدٍ غريبٍ، تصحو منها لتجد نفسك تهيم في تلك السحابة الهلامية التي لا تتبين فيها أي شيء، وربما لا تدرك خلالها هويتك.

من أنا؟ أين أنا؟ في أي وقت أنا الآن؟ لحظات عجيبة.. غريبة.. هل هي لحظات "تهنيج" في كمبيوتر الذاكرة، أم ضبط "السيتينجس" الداخلية على الحالة الغريبة أو المكان الغريب الذي لم يعتده إنسان بعد، كم من الأسرار يختبئ داخلك أيها الكائن المعجزة.. يا أعظم مخلوقات الله.

تربت "سارة" على كتفها مطمئنة إياها وتبتسم قائلة:

- مؤكد كان حلمًا جميلًا يا "شهد".. ملامحك وأنت نائمة كانت توحي بذلك.

تبتسم "شهد" بعد أن استجمعت نفسها، وتقول بنبرةٍ صافيةٍ:

- أجمل حلم يمكن تخيله.

بفضولٍ شديدٍ وإلحاحٍ من "سارة":

- احكِ لي يا "شهد".. يلا احكِ.. نفسي أعرف تفاصيل الحلم اللي خلاكِ نايمة زي الملاك كده؟ ملامحك يا "مامي" كانت جميلة جدًّا.. إيه هو الحلم ده؟ عايزة أعرف.

تبتسم "شهد" وتقول:

- كان حلم الأحلام يا "سارة".. كنت في مكانٍ عجيب.. غريب.. مكان فيه أشجار وزهور وأوراق وفواكه.. نهر جميل.. النظر له يريح العين والقلب.

تنجذب "سارة" إلى الحكاية، تستغرق في الإنصات كأنَّها تتخيل المشهد الأسطوري كما تصفه "شهد" وترويه، فهذه إحدى ملكات "شهد".. الحكْي المسلسل الشائق.. المثير كأنها شهرزاد التي أعتقتها موهبتها في الحكْي من سيف "السياف" ومن قسوة وتجبُّر شهريار.

وعندما وصلت "شهد" إلى لحظة الرجل بلا ملامح الذي خرج عفيًّا.. فتيًّا من مياه النهر، ثم ضمَّها بشدة.. لم تكمل الحلم كما رأته.. حذفت المشهد الساخن ، الذي تتصاعد فيه ألسنة الدخان من قلبيْ وجسدي المحبيْن.. بطليْ حلمها الأثير.

لكنَّ "سارة" بذكائها الحاد، وحسها الأنثوي، التقطت هذا الحذف ، وقالت بشقاوة وهي تركز نظرتها في وجه "شهد":

- ومن هذا الرجل يا "شهد" الذي بلا ملامح.. شبه مين كده يعني؟

تبتسم "شهد" وتقول:

- يا بنت.. يا مجرمة.. بقول لك بلا ملامح.. هعرف إزاي إنه شبه مين؟

تظل نظرة "سارة" تخترق وجه "شهد"، وتظل "شـهد" تهرب بنظراتها مراوغةً، لا تقوى على مواجهة "سارة" بما تريد أن تفاتحها بشأنه.

لكن "سارة" تقطع الطريق على أمها، وتفاجئها قائلة:

- أظن أن الرجل اللي شفتيه في حلمك الأسطوري كان أنكل "طارق".

ترتبك "شهد"، تنظر إلى "سارة" نظرةً خجولًا مترددةً.. وتقول:

- ليه بتظني كده يا "سارة"؟

- لأنه بيحبك يا أمي.. وانتي كمان بتحبيه.. وأعرف أنكما تحفظان حبكما السري بعيدًا عنَّا.

ترتبك "شهد" بشدة.. لا تجد الكلمات - رغم أنها صنعتها - لترد على هذا الكشف المباغت الذي ألقته "سارة" في وجهها فجأةً.

لكن سارة التي تحس جيدًا بأمها تلقي نفسها في حضنها، وتقول لها بنبرةٍ معجونةٍ بالحب:

- أحبكِ يا أمي.. وأريد أن أراكِ سعيدةً.. لقد كبرت - الآن - يا "شهد" وأدركت كم كنت غبية، حينما غضبت واعترضت على موقفك من أبي.. كنت صغيرةً وحمقاء.. أما الآن فقد كبرت على يديك، وفهمت الحياة.

- من حقك يا أمي أن تُحبِّي.. وأن تُحبَّي.. وأطمئنك يا حبيبتي أني أحب أنكل "طارق"، وأراه الرجل المثالي لامرأةٍ استثنائيةٍ.. ورائعةٍ.. اسمها "شهد".

لاحظت "ليلى" اهتمام "سارة" بـ"مهنَّد" المسئول عن كورس "تصميمات الموضة" الذي التحقتا به، والتقطت كذلك نظراته الخاطفة لـ"سارة" التي تنطق بالإعجاب – بل – بالوَلَه بها.

تخرّج "مهند" في كلية الفنون التطبيقية قسم "نسيج"، وسافر إلى إيطاليا حيث درس الماجستير في فن تصميم الأزياء، وهو – الآن – يعد رسالة الدكتوراه في موضوع بالغ الإثارة هو: "الأزياء والهوية"، وهي – كما هو واضح من عنوانها – تناقش فلسفة الأزياء ودلالات تصميماتها، وتحليل تفاصيل كل ما يتعلق بالأزياء من ألوان وخطوط وصيحات (أو صرعات كما يطلقون عليها في بعض البلدان العربية) في ضوء ارتباطه بثقافة الشعوب وتقاليدها ومعتقداتها.. فالأزياء فن وثقافة، وما نرتديه يُعبِّر عنا، ويلخِّص في لمح البصر الكثير عن شخصياتنا، بل عن تاريخنا ورؤيتنا للحياة.

خطف "مهنَّد" قلب "سارة"، فصارت تتحدث عنه معظم الوقت دون أن تصرح لـ"ليلى" بحبها الوليد.. ولم تشأ "ليلى" أن تحرجها، أو أن تنتزع منها اعترافًا لا تريد أن تبوح به إليها – على الأقل – قبل أن تتأكد منه، لكن "سارة" لم تنتظر طويلًا، وفي ليلة جمعتها بـ"ليلى" في عيد ميلاد صديقتهما المشتركة "هدى" فتحت قلبها.. باحت بمشاعرها وهواجسها لصديقتها

المقربة، التي صارت - بالأحرى - أقرب الصديقات أو أفضل الصديقات كما يسمونها الأمريكان: "Best friend".

فرحت "ليلى" بذلك البوح الحميم، واعتبرت تلك اللحظة الفريدة الميلاد الحقيقي لصداقة عميقة وقوية وممتدة مع "سارة".. كم تَـمَنَّت "ليلى" أن يحدث هذا، وأن تسقط الجدران السميكة التي وقفت بينها وبين "سارة" في فترةٍ كئيبةٍ عند بداية تعارفهما، خُصُوصًا عندما توطدت علاقة "ليلى" بـ"شهد"، التي تزامنت مع طلاق "أحمد " و"شهد" وإصرار "سارة" على البقاء في بيتها بالشيخ زايد مع والدها، اعتراضًا على موقف أمها الذي لم تكن تفهمه وقتها أو تقدِّره.

في تلك الأوقات كانت "ليلى" هي القريبة من "شهد".. موجودة ماديًّا في حياتها، بل وفي بيتها (بيت العيلة)، وكانت موجودةً - كذلك - في قلبها، فقد أحبتها "شهد" حبًّا مركبًا.. خطفت "ليلى" قلبها برقتها الطبيعية، ورهافة إحساسها، وتلك المسحة الأوروبية التي تطفو فوق تصرفاتها وإيماءاتها.

كذلك فجَّرت الشابة الصغيرة تعاطفها الكامل مع مشاعرها المعذبة لمأساة أمها "جيسيكا".. فالابنة الجميلة تحب أمها، وتتألم في صمتٍ من أجلها، ويعذبها كونها عاجزةً عن فعل شيء يسعدها بعدما فارقها كل من تحب، لتعيش وحدها في لندن مع ذكريات ذهبت ولن تعود.

وأخيرًا هي ابنة "طارق".. حب عمرها.. ومركز حياتها – الآن - الذي تدور في فلكه الأشياء والأحداث والأشخاص.. لكل هذه الأسباب أحبت

"شهد" "ليلى" حبًّا متدفقًا حنونًا، وكان ذلك يصيب "سارة" بالهيستريا أحيانًا.

- كيف تكون لأمي ابنة أخرى غيري؟

وكانت التساؤلات تنهش رأسها:

- هل تحب "شهد" "ليلى" أكثر مني؟ هل ترى أمي "ليلى" أجمل، وتعجبها شخصيتها الهادئة التي يغلب عليها طابع المثقفة الحالمة، بينما تراني فتاةً تافهةً، مشغولةً بالإنترنت.. والموضة.. والفُسح وقشور الأشياء كما كانت تقول لي دائمًا؟ هل كانت تتمنى لو أن "ليلى" ابنتها بدلًا مني؟

أسئلة كثيرة كانت تثور في عقل وقلب "سارة"، وتنعكس بحدة على علاقتها بـ"ليلى" . وكانت "ليلى" تقرأ كل هذا.. وتحاول أن تستوعبه أحيانًا.. كانت تؤْثِر الابتعاد عن "بيت العيلة" حتى يعود لـ"سارة" هدوؤها واطمئنانها، وأحيانًا تقترب ولكن بحذرٍ حتى لا تتجاوز الخط الفاصل بين المسموح والممنوع حسب الحالة المزاجية لـ"سارة".

لذلك كله فكَّر "سيف" كيف يصوغ مبادرة السلام بينهما، فهذه أخته الوحيدة التي يحبها ولا يتصور يومًا أن يتخلَّى عنها، وتلك حبيبته التي ملأت حياته، وغيَّرت أفكاره، وحوَّلت خط سير مشروعاته للمستقبل.

ونجح "سيف" عندما التقط بذكاء خيطًا مشتركًا يمكن أن يجمعهما، وشجعهما على حضور الديفيليهات، والتفكير في كورسات تدريبية تصقلان من خلالها موهبتهما في تصميم الأزياء، وجاءت الفرصة عندما نُشِر الإعلان، وتقدمت الفتاتان للدراسة بمركز تصميمات الموضة.

فرحت "ليلى" بهذا التقارب، فقد كانت تتمنى أن تتعمَّق صداقتها بـ"سارة"، كانت تحس أن داخلها إنسانة ودود، حنونة، وعاطفية إلى أبعد حد، كأنها نسخة من "شهد" بمشاعرها المتدفقة وحنانها الجارف، لكنها تحاول أن تبدو غير ذلك.

كانت "سارة" تتفنَّن في الظهور بمظهر فتاة عصرية، عملية جدًّا، لا تؤمن كثيرًا بالعواطف على طريقة الأغنيات القديمة التي يتعذَّب فيها الحبيب، ويستعذب هذا العذاب.

لكنها - وكما اكتشفتها "ليلى" - بركان من المشاعر يتحرَّك إذا ما لامسته ومضات الصدق أو داعبته إشارات العشق.

وعندما باحت "سارة" لـ"ليلى" بمشاعرها المنجذبة بشدة لـ"مهند"، وحكت لها كيف تراه شخصية ناضجة، عميقة رغم صغر سنه، فهو لم يتجاوز الثلاثين، لكنه يملك رؤيةً واضحةً، وله مشروع يعمل لتحقيقه، كذلك فإن عينيه المليئتين بالذكاء تشعان برومانسية وجاذبية خلابة في الوقت نفسه.

أما الهواجس التي كانت تقلق "سارة" وتعربد في خلايا تفكيرها فكانت:

- هل يبادلها "مهند" المشاعر نفسها؟

- هل يرى في شخصيتها (التي تراها عادية جدًّا) ما يجذبه إليها؟

- هل إعجابه بها مجرد إعجاب بفتاة لطيفة ومتحمسة، تبدي اهتمامًا حقيقيًّا بالمجال الذي يحبه، وتدور حوله حياته وأفكاره ودراساته ومشروعاته؟

كانت في حاجة إلى إنسان قريب منها، يفكر معها بصوت عالٍ، ولم تجد غير "ليلى".. أختها التي لم تلدها أمها.

وكانت "ليلى" هي تلك الإنسانة التي توقعتها "سارة" بالفعل.

استمعت بإنصات إليها.. بدأ الكلام في بيت "هدى"، وانتهى في سيارة "سارة"، فقد تركت الصديقتان حفل عيد الميلاد، وانطلقتا بالسيارة إلى الزمالك، وفي الشارع المطل على النيل ركنت "سارة" السيارة في ذلك الركن الهادئ.. وانطلقت تلقي بكل ما يؤرقها بين يدي "ليلى".

لم تقاطعها "ليلى" أبدًا.. انتظرت حتى انتهت من الذي تريد قوله.. ثم بدأت تتكلم.. قالت "ليلى" لـ"سارة" إنها ترى في عيني "مهند" حبًّا مكتومًا لها، وفي تصرفاته تلميحات واضحة لا تخطؤها عين ، تشير إلى اهتمامه الخاص بها.

أما فيما يتعلق بمخاوفها وهواجسها فإنها ترى أنها غير واقعية، فـ"ليلى" ترى "سارة" فتاة مختلفة عن الكثيرات من الشابات التافهات اللاتي تمتلئ بهن الجامعات والأندية وأماكن العمل ومعظم البيوت.

فقد لاحظت "ليلى" أن معظم الشابات اللاتي في مثل عمرها هي و"سارة" – أي في العشرينيات من أعمارهن – لا يشغلهن شيء إلا الاهتمام بجمالهن الخارجي، ولا يثير اهتمامهن موضوع إلا العثور عن العريس "اللُّقطة" الذي يحقق لهن أمانيهن في الفارس الهمام.

والقليل منهن يفكرن بمنطق مختلف، ولديهن رؤية واضحة لحياتهن، ومشروع فكري أو اقتصادي أو سياسي يعملن على تحقيقه، وهذا – بالطبع –

لا يمنعهن من الالتقاء في لحظةٍ قدريَّةٍ بشريك العمر الذي يحبها وتحبه، يفهمها، ويحترم فكرها وعقلها في آن.

لكن "سارة" ليست من هؤلاء.. وإلا لماذا اندمجت بسرعة مع أعضاء (الخلية الأدبية) في (بيت العيلة)؟ لماذا ذابت في الكل إذا كانت تعزف نغمة نشاز وحدها؟

- إنك يا "سارة" فتاة مختلفة فعلًا.. لستِ تافهة.. لستِ إنسانةً بلا ملامح ولا بصمات.. لا.. أنتِ تتمتعين بجمال الشكل.. وجمال الروح والعقل.. أنت تعشقين العمل الإنساني وتزورين الأطفال المرضى والمشردين.. وأنتِ إنسانة موهوبة يستهويك فن تصميم الأزياء، وتحرصين على دراسته عمليًّا وعلميًّا، وهذا يصقل موهبتك الفطرية.. سوف تتخرجين في كلية الألسن هذا العام، وسوف تصبحين مترجمةً على أعلى مستوى إن شاء الله.. إذن ماذا ينقصك لتفخري بنفسك، وتعتزي بها؟

إنك فتاة رائعة.. و"مهنَّد" - قطعًا - يشعر بذلك، وأراهن على أنه يتحين الفرصة المناسبة ليتكلم ويفصح عن حبه لك.. ويبوح.. انتظري يا صديقتي الحبيبة.. وسترين..

نوستالجيا .. أو الحنين للماضي.. ذلك المرض المنتشر بكثرة بين الأدباء والشعراء والفنانين بصفة عامة، هل سأل أحدكم نفسه: ما أسبابه؟ هل شغلكم البحث عن إجابة لهذا السؤال المستمر.. والمتجدد؟

سيظن البعض أننا في الشرق شعوب عاطفية، يجرفها الحنين صوب ما انقضى من أيامنا الفائتة.. لكن ماذا يقول هؤلاء عن الكاتب الفرنسي الشهير "مارسيل بروست" الذي كتب ملحمته الأدبية: "البحث عن الزمن المفقود" في سبعة أجزاء؟ والتي ترجمت إلى كل لغات العالم، واعتبرها الأدباء والمثقفون في العالم كله واحدة من أهم أمهات الكتب في الأدب العالمي؟

وعندنا "طه حسين" الذي كتب رائعته "الأيام".

كثيرون هم الذين استوقفهم الزمن، ودعاهم إلى الغوص في أعماقه وأبعاده الظاهرة والكامنة.

"زمن جميل مضى" أصدره "كتاب اليوم" للدكتور "جابر عصفور".. صورة أخرى من صور حنين الأدباء إلى الزَّمن الذي انفلت من بين أعمارنا، وتركنا نبكيه وحدنا بعيون مبتسمة، ونظرات شاردة تذهب بعيدًا وسط الدموع لتشاهد لقطةً حقيقيةً من ذكرى قديمة.

التقيتُ بأشخاصٍ يعانون "فوبيا الزمن".. يتعلقون بكل ذكرى، ويرتبطون بأية صورة سجلت تاريخًا مضى، كأنهم يحاصرون الزمن أو يطاردونه!

أعرف إنسانة عزيزة.. مثقفةً.. ناضجةً.. متحققةً، ورغم ذلك تخشى الزمن، وتحفظ ذكرياتها كما تحفظ جواهرها النفيسة.

أية صورة فوتوغرافية لقريب أو حبيب.. كل شريط فيديو سجلت عليه تفاصيل مناسبة عائلية، أو حدث مهم في حياتها.. خطابات موقعة من أشخاص بعضهم رحل عن عالمنا، والبعض فارقها لسبب أو آخر، والبعض تغيَّر شكلًا وموضوعًا.. الطفل الصغير صار شابًا.. الفتاة الشابة صارت جدة.. النساء المتأنقات الجميلات صارت معظمهن محجبات.. أو بدينات غير مكترثات.

هذه المرأة تتعذب بذاكرتها وتستمتع بها في آن، تتعذب بالانقلابات الحادة التي تحدثها الأقدار في حياة البشر، فتسرق منهم - أحيانًا - أجمل ما فيها.

وتستمتع بمشاهدة فيلم دراماتيكي من الطراز الأول أبطاله بشر نعرفهم ويعرفوننا.. نحبهم ويحبوننا.. لكن الأحداث التي تصاعدت، والمواقف الفارقة التي مروا بها، أحالتهم إلى بشر آخرين غير الذين أحببناهم.. أو عرفناهم يومًا.

أعرف كثيرين يحتفظون بصورٍ فوتوغرافية لآبائهم أو أمهاتهم أو أحبائهم في لقطات الجمال والبهجة.. ولا يرغبون في الاحتفاظ بصور هؤلاء التي تظهر الضعف الشديد في فترات المرض أو الشيخوخة.. إننا نحب أن نرى أحباءنا في صورتهم التي أحببناها وارتبطنا بها، لكننا - غالبا - لا نرغب في أن تحفظ ذاكرتنا آخر صورة.

سألت صديقتي العزيزة عن السر في استغراقها في الماضي، وعندما اقتربنا إنسانيًّا بصورةٍ تسمح بكسر الحواجز، اعترفت لي أنها تعيش في رعبٍ من فكرة أن يتعرض الـ (هارد ديسك) في مخها للمسح أو الإلغاء.

تخشى أن يسقط الملف الرئيسي الذي يحمل تاريخها وذكرياتها.. أفكارها وأسرارها.. وباحت لي بالسر في خوفها المرضي من أن يحدث ذلك.. لقد رأت أمها تعيش تلك التجربة المريرة عندما أصابها مرض الزهايمر، وعاشت بلا تاريخ.. بلا ماضٍ.. وبلا ذكرى لسنواتٍ ثلاث متعاقبة.. حتى لفظت أنفاسها الأخيرة.. وغادرت الحياة.

عاشت صديقتي تلك المحنة مع أقرب الناس إليها.. أمها التي كانت تحبها حبًّا جمًّا، وكانت تتعذب وهي تراها صامتةً، والأفكار والكلمات والذكريات والأسماء معتقلة في عينيها التائهتين الشاردتين في عالم لا نعرفه.. ولا ندرك مكنونه وغايته.

منذ رحيل الأم الغالية ولدت الفكرة في يقينها.. فكرة الاحتفاظ بكل ما تعرفه، بكل تجاربها وأحداث حياتها.. وتحولت الفكرة العابرة إلى فكرةٍ مسيطرةٍ تحكم تصرفاتها وأفعالها.. وظنَّ من حولها، حتى أقرب الناس إليها أنها – حتمًا – قد جُنَّت.

وعندما التقيتها أدركت أن السيدة بكامل قواها العقلية، لكنها كانت تعاني "فوبيا الزمن"، وتحاول أن تقبض على كل لحظة عاشتها حتى لا تنفلت وتهرب إلى بحر النسيان.

إنها ترى صورها زمان أجمل.. ترى أبناءها الشباب - الآن - عندما كانوا أطفـالًا فتعـود عجـلة الزمن، وتتوقف عند مشاهد تحبهـا.. كانت الدنيا في تلك الصور أجمل.. وكان الناس أجمل.. وكان الشباب يلوِّن الأشياء بلون الأمـل.

لو تعرف الكاميرا ماذا تفعل في حياة البشر لأصابها الغرور، وتكبَّرت على كل الاختراعات البشرية الأخرى، فهذه الآلة الصغيرة تقوم بتخزين الزمن، والقبض على كل لحظة انفلتت، واختفت، وذابت في اللاشيء.

هل يعاني الإنسان من سيطرة تلك الفكرة عندما يمضي به قطار العمر، ويقترب من محطته الأخيرة؟ هل هي محاولة أخيرة لاستعادة ما كان؟ هل تتوقف عجلة الزمن إذا ركضنا مسرعين نسجل اللحظات الفائتة؟

تدمع "شهد" بينما تقرأ الورقة التي كتبها "طارق" ليشارك بها في مؤتمر "الذاكرة في الأدب العربي".. هذا المؤتمر الذي يقيمه المجلس الأعلى للثقافة الأسبوع المقبل.

- أعجبتك؟

يسألها "طارق" :

- رائعة.

تجيبه "شهد":

- ولـمَ هذه الدموع؟ تذكرتِ "ماما".. أليس كذلك؟

- نعم .. تذكرتها وأعادتني الذكرى إلى استدعاء الألم.. ألمها.. وألمي.

تستطرد قائلةً بينما تمسح دموعًا انسابت رغمًا عنها وهي تصف إحساسها بما قرأت :

- لقد حللت "النوستالجيا" تحليلًا أكثر من رائع يا "طارق".. كل يوم تؤكد لي أنك كاتب رفيع المستوى.. ومفكر حقيقي.

يضحك "طارق" محاولًا تغيير نبرة الحزن التي خلَّفتها ورقته أو شهادته الأدبية التي سيقدمها في مؤتمر المجلس الأعلى للثقافة، ويقول:

- طيب.. ما رأيك في المفاجأة الكبيرة التي تنتظرك بعدما أنتهي من المؤتمر؟

تبتسم "شهد" وسط دموعها ونظرة الشجن- لا تزال- ساكنة في عينيها، وتقول:

- أية مفاجأة يا "طارق" ؟ قل لي بسرعة.. لا أستطيع الانتظار.

- كيف أقول لك يا "شهد"، وهي كما قلت لك: مفاجأة.

- مفاجأة.. مفاجأة.. لكن أعرفها دلوقت.

يبتسم "طارق" ويرد مذعنًا لطلب "شهد":

- رحلة يا ستي.. رحلة جميلة في مكان بديع.

تفرح "شهد" فرحةً طفوليةً وتنطلق أسئلتها متلاحقة:

- فين.. إمتى .. مدتها قد إيه؟

- أنا قلت رحلة.. وممكن أقول كمان إن مدتها أسبوع.. ومعادها بعد المؤتمر مباشرةً.. لكن فين دي بقى سيبيها لي أنا.. علشان يبقى فيه حاجة واحدة بس فاضلة للمفاجأة.

تبتسم "شهد" وتقول:

- طب قل لي.. هنروح مكان برد واللا حر؟ جوه مصر واللا بره مصر؟

يضحك "طارق" لمحاصرة "شهد" له بالأسئلة ويقول:

- انتِ تنفعي وكيل نيابة.. كولومبو.. ياه عليكِ يا "شهد" .. طب يا ستي هقول لك.. الرحلة جوه مصر.. والجو حيكون حار نهارًا.. بارد ليلًا، أما أكثر من كده مش هقول كلمة واحدة حتى لو نزلت السماء على الأرض.. بطَّلي فضول بقى..

وتمتم لنفسه:

- الله يسامحك.. بوّظْتِ لي المفاجأة يا "شهد"..

كانت "شهد" تعد حقيبة السفر ، عندما سمعت رنة تليفونها المحمول تخبرها أن لديها رسالة وصلت للتو.. فتحت الرسالة، كان الراسل هو: "طارق"، والرسالة تقول: أرجوكِ ادخلي على (الإيميل) الآن.. أرسلت لك أشياءً جميلة ستعجبك.

أسرعت تفتح (اللاب توب) لتظهر أمامها عدة ملفات.. فتحتها الواحد تلو الآخر.. كانت هذه هي طريقتهما ، إذا ما صادف أحدهما قصيدة جميلة أو قصة تقول شيئًا بين السطور، أو حتى صورة لها معنى أن يرسلها إلى الآخر.

الملف الأول كان عليه قصيدة لنزار قباني بعنوان: **"إلى حبيبتي في رأس السنة"**.. تركت "شهد" حقيبة السفر، وجلست على مقعدها المواجه للمكتب الصغير وبدأت تقرأ باستمتاع:

إنني أحبُّكِ

ولن أتركَكِ وحدكِ على ورقة 31 ديسمبر أبدًا

سأحملكِ على ذراعيَّ

وأتنقَّل بكِ بين الفصولِ الأربعةِ

ففي الشتاءِ، سأضعُ على رأسك قبَّعةَ صوف حمراء

كي لا تبْردي

وفي الخريف، سأعطيكِ معطفَ المطرِ الوحيدَ الذي أملكهُ
كي لا تتبلَّلي
وفي الربيعِ..
سأتركِ تنامين على الحشائشِ الطازجةِ
وتتناولينَ طعامَ الإفطارِ
مع الجنادبِ والعصافيرِ
وفي الصيفِ
سأشتري لكِ شبكةَ صيدٍ صغيرةٍ
لتصطادي المحارَ
وطيورَ البحرِ
والأسماكَ المجهولةَ العناوين
إنني أُحبُّكِ
ولا أريدُ أن أربطكِ بذاكرةِ الأفعالِ الماضيَةِ
ولا بذاكرةِ القطاراتِ المسافرةِ
فأنتِ القطارُ الأخيرُ الذي يسافر ليلًا ونهارًا
فوق شرايين يدي
أنتِ قطاري الأخير
وأنا محطَّتكِ الأخيرَة

* * *

تغمض "شهد" عينيها في هدوء كأنها تغوصُ في الكلماتِ.. كأنَّها تستنشقها حتى تذوبَ في دمها.. لحظات من الصمتِ العميقِ، والاستيعاب لتلك الجرعةِ المركزةِ التي حملتها رسالة طارق على أجنحة شعر نزار.

تقوم من مقعدها، وتتجه ببطءٍ إلى الركنِ الخاص بـ"نيش" السفرة.. أخرجت زجاجة النبيذ الأحمر، وكأسها الأثير.. صبَّت كأسًا، وعادت به لتكمل رسائل "طارق".

الملف الثاني مكتوب عليه: **"عصفور الحب.. قصة قصيرة"**.

جلست تقرأ وترتشف النبيذ ببطءٍ واستمتاعٍ:

"في المكان نفسه، حيث الركن الصغير المنزوي بعيدًا جلسا.. بينهما قدح القهوة وكوب الماء ذو الزجاج المغبش، يتسلل إليهما صوت "فيروز" وموسيقى "الرحبانية" ويمتد تاريخ ظنًّا - حتى تلك اللحظة - أنه انتهى.

قرأ السؤال في عينيها اللامعتين: لماذا افترقنا؟ ولماذا نعود؟

غاص قليلًا في هاتين العينين ، ثم أجابها بنبرةٍ عميقةٍ:

- كان لا بد أن أبتعدَ لأقتربَ.. أن يجرفني الخواء لألهث صوب الاكتمال، وأن أفقدك تمامًا لأدرك معنى التحقُّق بك ولك ومعك.

قاطعته:

- وهل حسمت قضيتك بعد؟ الحب في مواجهة الحرية، العصفور الذي يفر دائمًا من الدفء، ويهوى العيش على أغصان الشجر..

حدَّق طويلًا في تلك الملامح، أحسها خطوطًا محفورةً في نفسه.. أجابها:

- كان لا بد أن أسير في الطريق حتى النهاية لأصل إلى المعنى و...

قاطعته:

- والعصفور؟

قال:

- سيطير أكثر، وستنطلقُ أجنحته قويَّة، واثقةً منطلقةً بزهوٍ نحو أعلى سماء.

قالت:

- كيف؟

قال:

- هذا هو الاكتشاف الكبير الذي كان لا بد أن أصل إليه.. أن الحب اختيار والحرية أيضًا اختيار.. وأن الحب قوة والحرية أيضًا قوة.. وأنا أحبك.. إذن فأنا حر في اختيارك، قويٌّ بحبك.

قالت:

- والقيد الذي طالما كرهته؟

قال:

- قيود الحب جميلة نحتمي في ظلها، ونلوذ.

قالت:

- والتوحد مع الذات؟

قال:

- ذاتي نصف ناقص لا يكتمل واحدًا صحيحًا إلا بكِ.

قالت:

- والاختلاف؟

قال:

- نختلف لنتفق، ونتفق لنختلف، ونتفق ونختلف لنكتمل.

قالت:

- والإرادة؟

قال:

- أريدك بقوةٍ، وأحبك بكل حريةٍ.

قالت:

- والتنازلات؟

قال:

- أتنازل لكِ.. يعني أتنازل لنفسي، فلا تنازل.

قالت:

- والحياة؟

قال:

- يصبح لها لونٌ وطعمٌ ورائحةٌ ونحن معًا.

قالت:

- والحب.. ذلك المرض الذي تمنيْتُ الشفاء منه؟

قال:

- الحب جرثومة صغيرة تدخل دورتنا الدموية، فتجعلنا أكثر نضارةً وعافيةً.. كما قالها نزار قباني.

قالت:

- والحلم؟

قال:

- يتحول إلى كابوسٍ عندما أفتقدكِ.

قالت:

- والطريق؟

قال:

- يبتلع خطواته دونك.

قالت:

- والسماء؟

قال:

- تلمع بنجوم الأمل في عينيكِ.

قالت:

- والمستقبل؟

قال:

- يكتب أيامه بحرارة صدقك.

قالت:

- والعمر؟

قال:

- يساوي العدم بعدك.

قالت:

- وأنا؟

قال:

- أحبكِ.. وأنتِ؟

قالت:

- أحبك الآن أكثر.."..

- الله.. الله عليك يا "طارق".. أديب جميل، وحبيب أجمل.

هكذا تمتمت "شهد" لنفسها.. وهي ترتشف الرشفة الأخيرة من كأس النبيذ.. وتشرد في تأمل هذا الرجل الذي اخترق حياتها اليائسة في اللحظة المناسبة.. كيف يمكن أن يولد إنسان من جديد وهو في الخمسين؟ كيف يمارس كلَّ شيء في حياته كما يحب هو لا كما يحب الآخرون؟ كيف يكون نفسه.. نفسه فقط ولا أحد سواها؟ هذا هو ما دفعها الحب الخمسيني إلى تجربته، ومعايشته، وعندما انطلقت بتلقائيةٍ تعيد ترتيب أوراقها من الداخل، لم تشعر أن الوقت قد فات، ولم تفكر أنها امرأة تطرق "باب الخمسين" في عمرها المتسرب من بين أصابع الزمن.

لم تفكر في أي من هذا.. فقط شدتها فكرة أن تعيش "صح" ولو ليومٍ واحدٍ أو سنةٍ واحدةٍ، أو حسبما قُدِّر لها أن تعيش.

الآن.. وفي هذه اللحظة فقط أصبحت قادرةً على ترويض الزمن حتى لا يراوغها وينتزع منها أي قدر من الوقت المتاح.. فالقادم لها بكل ثوانيه.. كل ما كان مخبوءًا في خانة الأحلام المؤجَّلة سوف يخرج من مخبئه.. وكل

الأفكار المسجونة في زنزانة "عيون الآخرين" لا بد أن يُفرَج عنها، وتخرج إلى الهواء الصحي، وتستنشق نسمات الحرية.

كم أرقتها لعبة الزمن الذي يعطينا في طفولتنا - وربما في شبابنا - كل مفاتيح الحياة، نفتح بها ما نشاء من أبواب السعادة والنشوة والبهجة والقوة، وما أن يمضي بنا القطار حتى يستعيد الزمن مفاتيحه الواحد تلو الآخر، ونجد أنفسنا نترنَّح بين الأبواب القليلة المتاحة، ونجاهد في فتحها بالمفاتيح الباقية، والتي عادة ما تكون قد صدئت وتآكلت بفعل الزمن.

لازمها هذا الهاجس طويلًا، وجعلها ترقب تلك اللعبة كل يوم وهي تمارَس في ملعبها، وترصد التغيرات التي تسحب منها كل يوم رصيدًا من القوة البدنية، وتلاحظ الضعف الذي أصاب عينيها وأوجاع الروماتيزم التي صارت تفرمل انطلاقها، وتعلن حالة التمرد على تَمَسُّكِها بشباب ولَّى.

وكانت الطامة الكبرى عندنا أعلنت الدورة الشهرية الرحيل، وتداعت أعضاء الجسد كلها.. انفرطت مثل عقد انقطع خيطه، ومع انسحاب المايسترو يغرق أعضاء الفرقة الموسيقية في فوضى عارمةٍ، وتتحول النغمات إلى وخزات تؤذي الأذن والجسد معًا.

- هل يفعل انقطاع الدورة الشهرية عند المرأة كل هذا؟

- الإجابة: نعم.. وهذا ما لم تتوقعه "شهد" رغم قراءاتها العديدة في هذا الموضوع، وثقافتها العامة التي تؤهلها أكثر من غيرها لتقبل التغيرات التي تطرأ على الإنسان لأسبابٍ مختلفة.

كانت تعلم إن انقطاع الدورة يعني فقدان المرأة للهرمونات التي تقف دائمًا كجيوشِ صدٍّ ودفاعٍ عن جسدها في مواجهة أمراضٍ كثيرةٍ منها القلب والضغط والأمراض الروماتيزمية بأنواعها، لكنها لم تتصور هذا الكم من التداعي المفاجئ لـ"السيمترية" للتنسيق والترابط ، الذي يجمع حركة أعضاء الجسد معًا ويربطها بالحالة المزاجية للمرأة.

في الفترة الأولى.. وعندما كانت الدورة الشهرية تعلن الرحيل بالتدريج فتأتي شهرًا، وتغيب شهرين، ثم تعود ثم تغيب، وذلك قبل الرحيل الكامل والنهائي، كانت "شهد" تعيش حالات من عدم التوازن.. تداهمها الكآبة، وتسيطر عليها مشاعر الإحباط، وتتوتر لأتفه الأسباب.

وقررت أن تزور طبيبها الخاص.. كتب لها بعض الأقراص بعضها من بدائل الهرمونات الطبيعية، وبعضها مهدئات، وبعضها فيتامينات تقوِّي الجهاز العصبي ليقاوم تلك الأعراض الطبيعية لانقطاع الدورة الشهرية.

ونصحها الطبيب في ذلك الوقت أن تغيِّر حياتها وتصنع لنفسها " Life style" يتناسب مع هذه المرحلة المهمة في حياة المرأة.. قال لها:

- امشي.. تريضي.. فهذه الرياضة مفيدة جدًّا في تلك المرحلة.. فيها تنفيس وراحة جسدية ونفسية رائعة.

وفعلت ما نصحها به الطبيب.. لكن "لعبة الزمن" كانت لا تزال تشغلها.. ربما بسبب تآمر الظروف كلها عليها في وقتٍ واحدٍ.. استقالتها من البنك.. مرض أمها المعذِّب الذي انتهى بوفاتها، ثم رحيل المايسترو المنظِّم لحركة جسدها وأعصابها، ولم تجد غير الماضي يؤنس وحدتها، ويؤازرها في

"لعبة الزمن".. غاصت في أوراقها وصورها وشرائط الفيديو والتسجيل.. راحت تنقِّب في حفائر الماضي عن أسباب حياتها، وتكشف سر الوجود.

وفي غمرة استغراقها في الماضي ظهر "طارق" لتطفو سفينة حياتها من جديد على سطح الحاضر، وتبحر في مياهه، وتكتشف مدنًا جديدةً.. منسيةً على شواطئ نفسها.. هذا هو ما فعله "طارق" بحياتي.. فماذا يا ترى يخبِّئ لي القدر من مفاجآتٍ سعيدةٍ؟ غدًا سأسافر معه.. إلى أين؟ وإلامَ تأخذنا الأيام؟

آه.. لا بد أن أنتهي سريعًا من إعداد الحقيبة.. سيمر على "طارق" في السادسة صباحًا.. لا بد أن أسرع..

هل كانت "سفينة الحب" أم "رحلة الأحلام" تلك التي حجز بها "طارق" مكانين لحبيبين في الجنة؟

يغادران مطار الأقصر.. تقلهما سيارة "ليموزين" من المطار إلى مرسى السفن العائمة.. شعور غامض يقفز في قلبها بأن حدثًا جللًا في انتظارها.

تتوقف السيارة عند المرسى.. ترى لافتةً تحمل اسم السفينة التي توقفت أمامها السيارة والتي اختارها "طارق" لتكون مكانًا لرحلتهما.. " Love boat" هكذا كتب على واجهة السفينة، وعلى جانبها.

تدخل "شهد" بعدما تعبر السقالة المثبتة بين المرسى والسفينة لعبور الركاب.

ينفتح الباب الزجاجي فيظهر أمامها - فجأة - صَفَّان من عازفي الكمان ممتدين بطول المدخل حتَّى الدرج المؤدي إلى الطابق الأول.. وما أن يروا "شهد" و"طارق" حتى تنهمر الموسيقى من أوتار كمنجاتهم بألحان أغنيات الستينيات الشهيرة.. "جورج مايكل" و"فرانك سيناترا" وغيرهما كانا يبعثان من جديد على أوتار كمنجات العازفين، ويشعلان أضواء الشموع في حياة الحبيبين الحالمين.

تدخل "شهد" قمرتها في السفينة بعدما يودعها "طارق" بقبلةٍ واحدةٍ عميقةٍ على جبينها، كأنها توقيعه الخاص الذي يقر بمقتضاه على عهد ووعد بالعشق حتى آخر العمر.

يدخل كل منهما قمرته ليرتب أشياءه، ويأخذ حمامًا دافئًا، ويبدِّل ملابسه ويستعد للاستمتاع ببرنامج الرحلة على متن "سفينة الحب".. كانت الشمس دافئة، حنونًا، والجو منعش بنسماته الباردة، النقية.. تأخذ "شهد" نفسًا عميقًا بينما ترفع رأسها إلى السماء، كأنها تريد أن تشد كل الأوكسجين المتاح، وتملأ به رئتيها.

يتأملها "طارق" كما لو كان يتأمل لوحة مرسومة على خلفية الواقع.. السماء بزرقتها، وتدرج ألوانها.. ولا أروع فنان.. النيل الذي تخترقه مقدمة السفينة ببطء وثقة، فتتفرق مياهه وتتفرع.

وجه "شهد" الذي يراه مشرقًا، نضرًا، كأن التجاعيد التي صنعتها يد الزمن تتوارى في لحظات الحب الحقيقية.. تتبدد، ولا نرى إلا الوجه الذي تحمل الروح ملامحه.. الروح لا تتغير بفعل الزمن إلا إذا تركناه يغزوها ويهزمها.

وجهها في عينيه وجه آخر غير الذي تراه "سارة" و"سيف" و"ليلى" و"مهند" و"نادر" و"عالية" و"هدى" و"عمرو" و"حسام".. غير الذي يراه أي فرد من أفراد "بيت العيلة".

غير الذي كان يراه الدكتور أحمد - زوجها السابق - إنه وجه مُشْبع بالحب.. محقون بإكسير الحياة الذي لم تخترعه عيادات التجميل بعد، والمؤكد

أنها لن تفعل.. لن تستطيع أن تعبئ المشاعر في زجاجة، أو أن تحيي الخلايا الذابلة إلا عندما ترويها مياه الحب.

يداهمها الصمت طوال ذلك النهار، ويتحول إلى لغةٍ لها قاموسها ومفرداتها.. يغوص كل منهما في أعماق نفسه، لا يرغب في أن يقتحم خصوصية الآخر في استدعاء أجزاءٍ حميمةٍ تسكن ذاكرته، وتزوره من حين إلى حين.

تظل نظراتها شاردةً متجهةً أحيانًا إلى مياه النيل البديع.. هبة مصر والمصريين، وأحيانًا إلى الأفق المفتوح أمامها والسفينة تَمْخُر عباب النهر العظيم.

لم يسألها: لماذا أنتِ صامتة هكذا؟، ولم تسأله كذلك، كأنهما اتفقا – دون كلمات – أن يبحر كل منهما في بحار نفسه، ويلتقط منها ما يشاء.

وعندما أوشكت الشمس على المغيب، افترقا.. ذهب كل منهما إلى قمرته بالسفينة، يختلي بنفسه، ويفوز بإغفاءةٍ قصيرةٍ تجدد طاقته، وحيويته استعدادًا للسهرة على متن السفينة.

* * *

بذكاءٍ وفطنةِ قبطان مخضرم ، التقط الكابتن "ناصر" إشارات الحب الخمسيني، وبراداره الخاص أدرك أنها ليست مراهقةً متأخرةً، أو خرف رجل وامرأة أوشكا على المحطة الأخيرة.. كانت خبرته في الحياة، وعشرات – بل مئات – قصص الحب التي عايشها واستمتع برصدها، وكشف كنهها، تقوده إلى أن "طارق" و"شهد" بطلا قصة فريدة.

لذلك أشرف بنفسه على الـ(دي . جي)، واختار برنامج حفل السهرة، وكل الأغنيات التي رآها مناسبة كخلفية لواحدة من أعظم قصص الحب التي عايش أحداثها على متن "سفينة الحب".

في التاسعة مساءً ظهرت "شهد" ترتدي فستان سهرة أزرق، مطرزًا على الصدر تطريزًا خفيفًا، شديد البساطة والروعة.. شعرها مصفف بعناية، يتخلله دبوس صغير مرصع بحبات الأحجار اللامعة.. على وجهها مسحة من الجمال الطبيعي الذي يعلن عن نفسه بهدوء.. دون ضجيج أو صخب.. جمال يتسلل إلى الآخرين، ويدفئهم.. يؤنسهم.. ولا يصدمهم.

أما "طارق" فقد ظهر مرتديًا بذلة سوداء أنيقة، و"بابيون" أسود، وقميص مرفوع الياقة، وكأنه أحد لوردات الإنجليز!

كان يتلفت حوله كشاب ينتظر حبيبته التي واعدها للمرة الأولى.. وكانت تقف في ركنٍ بعيدٍ تترقب وصوله بنشوةٍ عارمةٍ لم تجربها منذ زمنٍ.. انتظار اللحظات السعيدة في حياة الإنسان هي الأجمل دائمًا.. إنها اللحظات التي تسبق ميلاد الفرحة.. ويا لها من لحظات.

وقعت عيناه عليها.. فاختلجت أحاسيسه، وتقدم نحوها بخطواتِ عاشقٍ تهفو نفسه لاختطاف حبيبته بعيدًا عن كل الناس.

أطبقت يده على كفها الصغير بقوة، غاصت نظراته في أعماق عينيها.. همس لها:

- يا جميلتي .. أحبك .. يا أجمل نساء الأرض .. أحبك.. يا شهد حياتي .. يا قمري.

غرقت "شهد" في الضحك لتخفي الخجل المسيطر عليها ، وهي تستمع إلى كلمات الغزل التي يطلقها "طارق" بطريقته المقتحمة، وخفة ظله المعهودة، قالت بحياء تلميذة في الثانوي :

- أين نجلس؟

قال:

- نجلس أينما شاءت أميرتي.

ابتسمت قائلة وهي تشير في اتجاه المكان الذي تقترحه:

- ما رأيك في تلك الطاولة المطلة على النيل في الركن الأيسر؟

- سمعًا وطاعة يا مولاتي..

اتجها إلى هناك.. جلسا منتشيين بهذا الجو.. أحسَّا أنهما يعيشان أجمل أيام العمر.. تلك الأيام التي نتمسك بها كلما لاحت عن بعد لحظة الغروب.. كانت الأضواء الخافتة، والموسيقى الرائعة من مختارات الكابتن "ناصر" تصنع بامتياز الخلفية الكاملة لأعظم قصة حب.

تقدم نحوها كابتن "ناصر" قبطان السفينة، وقال:

- أنا الكابتن "ناصر عبد الحكيم".. قبطان السفينة.. أرحب بكما على متن "سفينة الحب"، وأرجو أن تقضيا معًا وقتًا سعيدًا خلال رحلتنا.

ثم أكمل كلامه:

- ولأنني معجب بشكل شخصي بكما.. فاسمحا لي أن أهديكما الأغنية القادمة التي اخترتها مع الـ(دي . جي) من أجلكما.. ولكن بشرط.

التفت "طارق" باهتمام إلى كلام الكابتن "ناصر" وقال:

- أي شرط يا قبطاننا الهُمام؟ المهم أن يكون في استطاعتنا تنفيذه.

قال الكابتن "ناصر" والابتسامة ترتسم بسعادة على شفتيه:

- هو شرط بسيط جدًّا.. وأعتقد أنكما لن تمانعا في تنفيذه.

امتلأت "شهد" بالإثارة.. وقالت بحماسةٍ وفضول:

- ما الشرط يا كابتن.. قل وسوف نفعل ما تريد.

نظر إليها "طارق" مندهشًا من حماستها الزائدة، ولم يعلِّق منتظرًا ما سوف يقوله الكابتن "ناصر".. وهنا انطلق قائد السفينة قائلًا:

- سوف نُخْلي "البيست" من الراقصين ، وتبدأ حضرتك مع "شهد" هانم الرقص على نغمات الأغنية التي اخترتها ، ثم يلحق بكما بقية ركاب السفينة.. ما رأيكما؟

أشعل سيناريو الكابتن "ناصر" حماس "طارق" و"شهد"، وأصبحا الآن مستعدين لتنفيذ أوامر القبطان.. سألت "شهد":

- ما هي الأغنية؟.. أريد أن أعرفها يا كابتن "ناصر".

قال بمكر:

- لا.. آسف يا "شهد" هانم.. هذا ما سوف تعرفينه عندما يدعوكما الـ"دي جي" "سامح" إلى "البيست".. عندها فقط سوف تعرفين الأغنية التي أخترتها.. لأهديها لكما بالنيابة عن طاقم "سفينة الحب".

ثوانٍ وانطلق "سامح" بالتحية الخاصة لراكبيْن خاصيْن جدًّا هما مستر "طارق" ومسز "شهد"، ودعاهما إلى "البيست" وحدهما في بداية المقطع

الأول من الأغنية ، ثم دعا الجميع إلى الانضمام إليهما في بقية مقاطع الأغنية.. وقفا على "البيست" بفضولٍ عجيبٍ، ينتظران صوت الموسيقى.

لحظات من الصمت والفضول سادت القاعة ، وهم يرقبون العاشقيْن الخمسينييْن بسعادةٍ تسربت إلى الجميع.. وفجأة تصدح الموسيقى، ويتألق صوت المطربة الرائعة بالغناء، وتتحرك أقدام "طارق" و"شهد" ببطءٍ على خشبة "البيست"، كأنما يخطوان خطواتهما القادمة في الحياة، على صوت وردة الجزائرية:

"آه لو قابلتك من زمان كانت حياتي اتغيَّرت
ولا كان جرى كل اللي كان.. لكن دي قسمة اتقدَّرت
مكتوب لنا.. مقسوم لنا نرجع نقابل بعضنا
لما بقى آن الأوان".

وانضم ركاب السفينة إلى الحبيبين الغارقين في عمق اللحظة الفريدة.. انتقلت عدوى الحب إلى الجميع فصارت الخطوات تعانق النغمات، والعشاق يذوبون في جمرة المشاعر التي أشعلها "طارق" و"شهد".

تنتهي الأغنية يقف الجميع على "البيست" مبهورين، يتحلقون حول العاشقيْن الرئيسييْن وينتظرون حدوث شيء ما لا يعرفونه.

يمسك "طارق" بكتفي "شهد" بقوةٍ، ويسألها بحماسة:

- هل تتزوجينني..؟

القاهرة

نوفمبر 2009

نوال مصطفى في سطور ..

- رئيس تحرير "كتاب اليوم" بدار أخبار اليوم .
- حصلت على بكالوريوس الإعلام - قسم صحافة - جامعة القاهرة عام 1978 .
- بدأت حياتها الصحفية في دار أخبار اليوم عام 1980 وتميزت بالخط الإنساني والاجتماعي في كتاباتها الصحفية ، كما نشرت العديد من التحقيقات الخارجية من دول العالم ، التي زارت الكثير منها سواء في مهمات صحفية أو الحضور أو المشاركة في ندوات ومؤتمرات دولية خاصة بالمرأة أو الأدب .
- **صدر لها العديد من الكتب ، منها :**

- ست مجموعات قصصية أهمها : " الحياة مرة أخرى " عام 1992 - "حنين " 1993 - "مذكرات ضرة" 1994 - " رقصة الحب " 1995 - "عاشقات خلف الأسوار " 1997 .

- " العصافير لا يملكها أحد " 1999 ، وقد تحول بعضها إلى مسلسلات تليفزيونية .

- "مواسم القمر" .. مجموعة قصصية عام 2001 .
- "نجوم وأقلام" .. طبعة ثانية عام 2002 .

- "أسطورة الإسكندرية" .. قصة أشهر مكتبة عرفها العالم (وترجم إلى اللغتين الانجليزية والفرنسية) ، صدر في افتتاح مكتبة الإسكندرية عام 2002 .
- "المتهمة بالحب" .. سلسلة إبداع المرأة عام 2003 .
- "رواية الفخ" عام 2005.
- "الوجوه الزائفة" عام 2006.
- "الوقوع في الحب" عام 2007 .
- "قلوب تحت العشرين" في يناير 2008 .
- "بينظير بوتو .. ابنة القدر" في يناير 2008 .
- كما صدر لها عدة كتب صحفية وسير ذاتية لبعض الرموز الفكرية والأدبية ، ومنها كتابها عن نزار قباني ومي زيادة .

الجوائز :

- الحصول على جائزة الدولة للتفوق في الآداب عام 2007 عن مجمل أعمالها الأدبية وإسهاماتها الثقافية والإنسانية.
- الحصول على جائزة أفضل كتاب عام 2000 ، والحصول على تكريم الرئيس محمد حسني مبارك في المعرض الدولي للكتاب في يناير 2001 عن كتابها " مي زيادة .. أسطورة الحب والنبوغ "

- الحصـول على جائزة نقابة الصحفيين المصرية عام 1990 في الحوار الصحفـي عن الحديث مع بينظـير بوتو رئيسة وزراء باكستان السابقة في إسلام أباد (وهي في الحكم) .
- الحصول على جائـزة مصطفـى وعلي أمين عام 1995 عن أفـضل قصة صحفية إنسانية ، وعلى دبلوم الصحافة من جامعة بوسطن بالولايات المتحدة الأمريكية عام 1993 .

دراسات و منح خارجية :

- منحة صحفية لزيارة عدد من أهم الصحف وشبكات التليفزيون الأمريكية في ست ولايات لمدة شهر مقدمة من وكالة الإعلام الأمريكية، بالتعاون مع نقابة الصحفيين المصرية عام 1983 .
- حصلت على زمالة سالزبورج سيمينار ، بعد مشاركتها في الندوة الدولية لمناقشة قضية الإدمان عام 1987 .
- منحة دراسية بجامعة بوسطن بالولايات المتحدة الأمريكية لمدة شهرين ونصف لدراسة الصحافة وتكنولوجيا الاتصالات ، كما تضمنت المنحة زيارة الجنوب الأمريكي، وقضاء أسبوع بجامعة "جاكسون" بالميسيسيبي عام 1992 .
- اختيرت عضوًا برابطة الصحفيات الدولية "The Women's Edition" من عام 1999 – 2003 .

أنشطة أخرى

- رئيس مجلس إدارة جمعية رعاية أطفال السجينات .
- رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير مجلة " عيون المستقبل" .
- عضو اتحاد الكتاب المصري .
- عضو جمعية الكاتبات المصريات .
- عضو نقابة الصحفيين المصرية .
- عضو جمعية كتاب ونقاد السينما .
- عضو رابطة الصحفيات الدوليات Women's Edition .
- عضو لجنة الثقافة بالمجلس القومي للمرأة .